سحر طه

مقامات بغدادية

من يوميات الاحتلال الأميركي للعراق

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

سحر طه

مقامات بغدادية

(من يوميات الاحتلال الأميركي للعراق)

BAGHDADI MAQAMS

A Diary from the US-Occupied Iraq

By

Sahar Taha

First Published in January 2006
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.**
BEIRUT- LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb . www.elrayyes-books.com
. www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-236-8

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publishers

رسم وتصميم الغلاف: حسن إدلبي
الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦

المحتويات

ـ تقديم	بول شاوول	٩
ـ مقدمة		١٣
ـ إهداء		١٧
ـ استقبال العائلة		١٩
ـ حكاية ضربة بوش الأب عام ١٩٩١، وترقب ضربة بوش الإبن		٢٣
ـ ألبوم عائلة الزميلة الآتية من بغداد، بقلم سامر أبو هواش		٣٥
ـ ثم انقطعت الاتصالات		٣٩
ـ سامحيني أمي..		٤٧
ـ أخيراً سمعت صوتك يا أمي		٥٣
ـ عندما رأيت حيّنا في الأعظمية ركاماً..		٥٩

ـ روائحكِ يا البصرة ٦٥
ـ وجوه جميلة وقلوب بشعة ٦٩
ـ قلب مادونا على الغزاة ٧٣
ـ لسنا بحاجة إلى ماء ولا غذاء،
نحن بحاجة إلى كرامة وبس ٧٧
ـ أطفال أمّ قصْر ٨١
ـ رعاع بغداد لا يمثلون أهلها ٨٥
ـ لهفي عليكِ دار السلام ٩١
ـ هذا جزء مما يعانيه العرب في أميركا.. ٩٥
ـ أيام بغداد السود بين الماضي والحاضر ٩٩
ـ سطوح بغداد ١٠٧
ـ العالم تخلى عنّا ١١٣
ـ أيضاً التاريخ يعيد نفسه ١٢١
ـ أيام في النجف ١٢٧
ـ فلسطين أَم العراق في الصورة ١٣٣
ـ الرواتب في زمن العصملّي ١٣٧
ـ عندما كنّا نشد الرحال إلى النجف ١٤١
ـ نجمة داود: من يردّ هذا الغزو الصهيوني عن العراق ١٤٩
ـ عندما عاد أخي من الجبهة ١٥٥
ـ عراق الحرية ١٦٣
ـ عمي غازي ١٦٧
ـ أرفض هذا الاحتلال ١٧٧

تقديم

بول شاوول

عاشت سحر طه حربين مدمرتين الأولى في وطنها الثاني لبنان، والثانية في وطنها الأول العراق.

في الأولى عانت ما عاناه اللبنانيون الخارجون على لغة الحروب والقتل والموت والخراب، أي هؤلاء الهامشيون الذين لا انحياز لهم سوى للناس والضحايا والمستقبل، وفي الثانية عانت وتعاني ما يتكبّده العراق من عنف وجنون وتخريب وما يتحمله أهلها هناك، وناسها من مشقات وخوف وتهديد يومي ومتفجرات.

هذا كثير ! ربما! لكن سحر طه، الفنانة ذات الرهافة المكتنزة بالمشاعر والأحاسيس والموهبة، ما كان لها أن

تواجه تلك المآسي والأقدار، إلّا بالصبر والأمل والانتظار حيناً، وبالفن والكتابة حيناً آخر.

هكذا يتلازم اليأس مع الكلمة، والتخوف مع الصوت، والموت مع الفن. وهذا التلازم قد يعطي قوة لمقاومة تلك الوقائع والحالات.

هكذا، وعلى امتداد السنوات الأخيرة، حملت صوتها (أو حملها صوتها) وراحت تغني مقامات الحزن في عراقها الجريح، مقامات الألم، والدمع، لكنها أيضاً مقامات الإيمان بأن الأوطان لا تموت، مهما تجبّر القاتل، وتغطرس.

وعلى امتداد هذه السنوات المفعمة بالخراب في العراق، حملت قلمها (رديف صوتها وفنها)، وكتبت عن تلك التراجيديات اليومية، وعن بغداد.

وسحر بغدادية القلب والروح. تذكرت بغداد الطفولة. بغداد الأزقة. والمعالم. بغداد التاريخ.

بغداد الحضارة والإلفة بناسها وأهلها ولغاتها ومفاتنها.

بغداد قبل أن تسقط في الأيدي البربرية. كل هذا بلغة تسرد هنا، تحكي هناك، شفافة نافذة، حنونة، قوية. قاسية عندما تصرخ من الألم. عذبة عندما تنساب وتملّس على تذكار، أو على وجه، أو على صوت آتٍ من ذلك الماضي الأسطوري أو على حكاية تطلع من

الزوايا الحميمة، ومن التذكارات.

إنها رسائل. رسائل من كل القلب والجسد والبعاد والألم، تبعث بها سحر طه من بيروت التي تجرعت (وما تزال) ما تجرعته بغداد.

سحر البغدادية حتى المسام والروح، كأنها تنضمّ بسحر الكلمة إلى كل ذرة من ذرات مدينتها. إلى كل دمعة يذرفها أهلوها. إلى كل حجر من حجارة الرافدين. إلى كل نسمة من نسمات وطنها.

بغداد في القلب، ورسائل حية من القلب. كأنها إحدى الطرق التي تطن ما تقدر على أن تطن من الألم، وتقاوم ما تقدر على أن تقاوم من الخراب العميم. بل كأن الكلمة والنغم والصوت تحدّ، وإلى لحظة، محل ما يتفانى وينكسر ويتدمر.

فالكلمة أحياناً كثيرة، تحفظ ما يعدمه القتل. الكلمة أحياناً تتنفس من حيث الضيق، والاختناق، والرعب.

وها هي سحر طه، الزميلة والفنانة، تحمل القلم وكأنها تغني، تماماً كما تغني وكأنها تحمل القلم، في نشيد طويل، شجي، حزين، في حب بغداد، بغداد التي لا بدّ، من أن تنتصر يوماً لنفسها، و«تستجيب قدرها» للحرية والأمل والحياة.

مقدمة

عامان من الأحزان
عامان ملونان بالسواد
والأحمر القاني ..
أواه بغداد
ما زلتِ تتأوهين من أنّات موتاك
نواح ثكلاك بات غناءك الأثير
في الطرقات والبيوت
في كنائسك ومساجدك
روحي السومرية تجول في أروقة باحاتك العباسية
تبحث بين حجارتها الملتهبة عن ملاذ

لعل بين أنقاضها وردة ما تزال على قيد الحياة

لكن من أين لها الندى

والشتاء يباس ضبابه غبار حالك

بغداد وما برح الألم رفيقكِ

استبدلتِه منذ الأزل بالأحلام والسعادات

والقمر بات ينساك حين يهلّ على العالم

صوتك نبرة أسى تصم أذني

فجائعك تملأ وديانك، صحاريك وتلالك

ضحاياك

يفيض منها نهراك،

في انتظار ربيع مزهر

وبعد،

هذه الصفحات هي بضع كلمات لا ترتقي إلى مستوى الأحداث الجسام في بلدي الحبيب العراق.

لم يدر في خلدي يوماً أن يصبح عراقي عبداً مسلوب الحرية والإرادة. ولم أفكر يوماً وأنا أسطر أحزاني أن تجتمع في طيات كتاب.

كانت نبض جراحات تنزف في كلمات،

كنت أراقب التحضيرات إلى الحرب من لبنان ومن خلال زياراتي إلى أهلي في بغداد، فأشعر بالكارثة تكاد تكون أقرب من الرمش إلى العين، ورائحة الموت قبل حدوثه كانت تزكم أنفي. أنظر في عيون الكبار فأجد رغم الظلام آمالاً تتلألأ فيها، وإلى الأطفال فلا أجد سوى أفق مسدود وأقول الحق إنني اليوم أكثر إحباطاً من أي وقت مضى، كي لا أقول يأساً، فأين بصيص الأمل في عودة العراق إلينا؟

رغم كل تلك الحقائق، لم تصدق عيناي القصف اليومي على مدن العراق. لم أصدق ما كان يحدث للأطفال وللنساء وللزرع والحجر، فكانت الصفحة الثقافية في جريدة «المستقبل» فاتحة ذراعيها على تأوهاتي وآلامي، حضنتها فكانت مرآة لمشاعري، ما ساعدني على تنفيس الاحتقان والضغط والألم والحقد والحرقة والحسرة.

لم تكن كتابات يومية بقدر ما كانت تعليقات على مشاهد تعرض في الفترات الإخبارية على القنوات الفضائية عربية وأجنبية غطت الأحداث طوال فترة ما قبل الحرب وأثناءها وحتى اللحظة القاتلة، لحظة احتلال بغداد بدخول القوات الأميركية والبريطانية ومن تبعها وبداية رحلة آلام جديدة لم تنته بعد.

فالليل طال وليس في الأفق خيط أبيض ينبئ بالخلاص أو بتبدد الظلام وبزوغ فجر جديد.

إهداء

إلى
عراقي الحبيب،
روح والدي زارعاً حب الكلمة والوطن،
والدتي الصابرة،
سمير، نمير، منير وعقيل الصامدين،
سعيد في السرّاء والضرّاء،
محيي وهادي روح الحياة،
وأخيراً
كل من آلمته جراح العراق

استقبال العائلة

الثلاثاء ١٨ شباط ٢٠٠٣

استقبلتني عائلتي في مطار بغداد بدهشة ووجوم على الوجوه لم أعهدهما من قبل.

كانت العبارة الأولى التي بادروني بها: «جئتِ لتوديعنا. سنموت جميعاً، أليس كذلك؟» وهي عبارة رددها لي كل من جاء لزيارتي من أفراد العائلة والأصدقاء أثناء وجودي في بغداد.

كوني آتية من لبنان، فهم يفترضون أن تكون لدي معلومات ما كثيرة وأكيدة عما سيحدث لهم أي للعراق. لذا لم يقنعهم تأكيدي بأني لا أعرف أكثر مما يعرفون.

لم يحدث أن زرتهم في أيام العيد أو في موسم الشتاء أو أكثر من

مرة في العام، لذلك فإن زيارتي المفاجئة هذه والتي جاءت بعد أشهر على زيارة سابقة في آب الماضي، عام ٢٠٠٢، أشعلت القلق والخوف بل الرعب في أوصالهم وما برحوا يضحكون ويرددون: «يالله كلنا رح نموت».

كانت العيون تتطلع نحوي مباشرة، تلسعني بتساؤلاتها المتزاحمة، والملامح تختلط فيها الدهشة باللهفة. بدت الوجوه بأمسّ الحاجة لمعرفة الحقيقة أكثر من أي وقت مضى، لمعرفة المصير. وهذا ما ودّوا بشدة معرفته مني بالذات، لعلّي جئت أحمل معي بارقة أمل، أو حقيقة ما، تشفي الغليل، صعبة أو مؤلمة؟ ما هو أهون الشرين؟ بقاء الحال والتهديد المتواصل أم أن الحرب واقعة لا محالة.

يتوسلون إليّ كي أصدقهم القول، فقط ليكونوا على بينة مما يحدث ويحضر في الخفاء، وما سوف يحدث حسب قولهم.

الطريق بين المطار ومنطقة الأعظمية حيث بيت أهلي، طويل. وصلت وقت الغروب، فكأن الكآبة حلت برحيل الشمس، والرمادي أرخى لونه الحزين وملامحه على كل ما في الطريق من بشر وحجر. بمجرد أن مددت نظري إلى الأبنية العامة، والدور السكنية، تعثر ناظراي ببقايا هندسة معمارية كانت جميلة فيما مضى، مزدهرة، حيوية، ورغم الهرم والاهتراء الذي أصابها وعسف الزمن بها، ما تزال شاهدة على التطور الذي بلغه بلدي، أكثر بلدان العالم ثروات، ليس النفط أهمها بل البشرية منها.

المؤلم أنه منذ عام ١٩٩٠، وربما قبل هذا التاريخ بسنوات، قلما أقيمت ورشات صيانة أو إعمار. أثناء سيرنا كان يتعبني ويؤلمني

مشهد السيارات والحافلات التي تآكلت هياكلها وبهتت ألوانها أو صارت بلا ألوان محددة، وبالكاد تلمح بينها بضع سيارات حديثة، وبسبب تدهور حال العراقي اقتصادياً على امتداد سنوات يضطر إلى استخدام تلك الهياكل وبقايا ما يسمى سيارة أو حطامها لأنها كل ما يملك لتسهيل التنقل في بغداد شاسعة المساحة، وقد يكون هو أفضل حالاً من كثيرين غيره لا يجدون حتى ثمن الانتقال بباص الدولة.

الطرق والشوارع الفارهة، كانت شبه فارغة، تحلّ عليها غمامة، كالحة. ومن دون أدنى مبالغة لمست الخوف والترقب في الوجوه طوال الطريق، والحزن والكآبة غلّفا كل شيء حتى النخيل، وسعفه والأشجار الباسقة العتيقة، باتت عارية، هرمة، صفراء، يابسة، غبراء، إنها حقاً تموت واقفة كحال أهل البلد. اليأس والإحباط كلمتان لا تعبران سوى عن القليل مما يعيشه العراقيون، فالواقع المرير والمعاناة الطويلة بددتا كل ما هو مرادف للأمل أو الانفراج، فكلما لاح في الأفق بصيص أمل أو بارقة حل ما، تعود فتولد أزمة من حيث لا يدرون، فتعود القيود والمخاوف إلى تكبيلهم، والأزمات المتتالية تحبط آمالهم وأحلامهم. من هاجر ولد، ومن بقي دفن حياً.

في السنوات الأخيرة وبعد البدء بتطبيق قانون النفط مقابل الغذاء، كنت كلما ذهبت إلى بغداد أجد أن شركة ما قد افتتحت فرعاً لها هناك، أو مكتباً وأجد الأسواق وقد امتلأت بأنواع البضائع المستوردة، والأهم كانت حركة الطيران بدأت بشكل خجول بين العراق وبعض البلدان التي تخرق حظر التجول، الظالم أساساً، ومن دون أدنى مسوغ له، حيث تكرمت إحدى شركات الطيران المدعوة «صقر الخليج» بتخصيص إحدى طائراتها لنقل المسافرين من وإلى

العراق عن طريق عمّان ومن ثم دمشق.

وعلى ذكر الطائرة، جاءت والدتي في إحدى المرات على متنها من بغداد إلى دمشق، وبعد استقبالها في المطار حلفت أنها لن تركب الطائرة مرة أخرى، لأنها لم تعرف، حسب قولها، إن كانت تركب طائرة أم «عربانة»، أي عربة خضرة.

هذه كانت بعض ملامح انفراجات للأزمات الخانقة المتعددة، المتتالية والحصار القائم منذ ثلاثة عشر عاماً، وهكذا بعد شبه عودة لبضع شركات أجنبية وعربية وحركة تجارية خجولة، بدأت نتائجها تظهر من خلال تحريك سوق العمل وتشغيل نسبة ولو ضئيلة، من الشباب الذين عانوا البطالة طويلاً، إلّا أن الآمال ذهبت أدراج الرياح، لأسباب على رأسها إصرار الكبار، وتحديداً الإصرار الأميركي على إرهاب شعب بكامله، من خلال إخضاعه والتنكيل به والتلويح بالويل والثبور واستخدام أبشع طرق المنع وأشكال الحظر، والعالم كله، لا العراقي فقط، يعرف تماماً الخطط والأطماع والأهداف.

حكايات ضربة بوش الأب عام ١٩٩١ وترقب ضربة بوش الإبن

الخميس ٢٠ شباط ٢٠٠٣

خوف العراقيين اليوم من الحرب المقبلة بدا أضعاف ذاك الخوف الذي اعتراهم إبان الضربة الأميركية الأولى التي تمت لتحرير الكويت من الاحتلال العراقي. فبعد تلك التجربة القاسية التي ذاقوا فيها أنواع الويلات لم يعد الخوف من الموت بحد ذاته، بل من كل غيلان الحرب. غول الجوع، وغول التشرد والعوَز والنقص في الموارد. الخوف من عدم وضوح أو معرفة الفترة التي سيقضونها تحت وابل القنابل، وهدير الطائرات ورعب الصواريخ. الخوف من الظلمة وانقطاع الكهرباء ونقص الطعام أو تلفه. من نقص مياه الشرب، من انقطاع الاتصال بين الأفراد والعائلات بعضها ببعض، أثناء القصف والاجتياح بحيث لا يعرف أحد مصير أحد، وإلى متى ستدوم هذه الحال وهل سينجون؟

ضحك أهلي عندما سألتهم: «هل يوجد ملجأ هنا قرب البيت؟». قالوا إن هذه المنطقة «راغبة خاتون» التابعة لمنطقة الأعظمية، هي منطقة قديمة، ولذلك لا ملاجئ فيها. هناك بضعة ملاجئ بنيت في التسعينيات، في مناطق عدة من بغداد، لكنها معدودة وغير كافية، ولا مؤهلة إذا ما قيست بأعداد البيوت الهائلة وسكانها الكثر. غالبية هذه الملاجئ غير صالح لاستخدام البشر، أو غير مجهز فالملجأ كلمة غير متداولة، وكذلك فإن العراقيين بشكل عام فقدوا إيمانهم بكونه مكاناً آمناً بعد مأساة «ملجأ العامرية» الشهيرة والمريرة، التي قتل فيها أكثر من ٤٠٠ شخص في إحدى الغارات الأميركية عام ١٩٩١، فهم يفضلون الموت في بيوتهم، على مجرد التفكير في شيء يسمى «ملجأ». يذكر أن منطقة العامرية وحدها ربما توازي بيروت في مساحتها وعدد سكانها، من هنا العدد الكبير الذي لقي حتفه في ذاك الملجأ، لعدم توافر ملاجىء كثيرة في المنطقة، ناهيك عن المحافظات أو القرى التي يعتبر أمر الملجأ فيها نكتة أو حزورة فالكلمة غير موجودة في قاموس الناس البسطاء هناك.

أما ما يزيد الطين بلة، فهو الطبيعة الديموغرافية في العراق حيث الامتداد السكاني الأفقي، بحكم الرفاهية القديمة، والبيئة وطبيعة المجتمع وعاداته وأعرافه التي تحتم عيش العائلة في مسكن خاص (فيلاّ) ذي طابق أو طابقين وأحياناً ثلاثة. ويعد وجود حديقة أو أكثر خاصة بالبيت أمراً ضرورياً وجزءاً هاماً من حياة العراقي الذي يهجر غرف البيت إلى الحديقة طلباً للبرودة في ليالي الصيف القائظة. ولم يبدأ العراقيون بالسكن في عمارات وضمن الشقق وبشكل خجول، إلّا منذ ما يقارب العشرين سنة بعد أن شيدت الدولة مجمّعات سكنية تخفيفاً لأزمة السكن الخانقة، وتوسع مدينة بغداد بشكل كبير ومتعب بحيث تجاوزت مساحتها الستين كيلومتراً

مربعاً، لكن ما يزال سكن العمارات غير مستحب، ويبقى استخدام الشقق للمكاتب غالباً والشركات والأعمال الأخرى كالعيادات الطبية ومكاتب الهندسة وغيرها.

هذه الطبيعة في امتداد البيوت أفقياً، تزيد رعب العراقيين وخوفهم، فهي تعني المزيد من خسائرهم المادية والبشرية، إذ إن الضربة المقبلة ـ حسب أهلي ـ ستكون مأساتها أضعاف تلك، إذ تحضر في ذاكرتهم مشاهد أحد الصواريخ الذي دمر مركز الاتصالات في منطقة «الأعظمية» عام ١٩٩١ ودمّر معه أكثر من عشرين منزلاً سكنياً يحيط به.

أحداث ضربة «بوش الأب» هي اليوم أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، يتذكرها الكبار بأسى إذ ترتسم الصور المرعبة أمامهم كلما سردوها لغريب، فيما يتندر بها الصغار ويتفكّهون لتصبح تمثيليات كوميدية، وفي الحالتين هي أقرب إلى أفلام «الآكشن» الأميركية وكأن المخرج الكبير في الحقيقة يحاول تقليد مخرجي تلك الأفلام، والعبقري هو ذلك الذي يجسد الأحداث حقيقة على أرض الواقع، إلّا أن المخرجَين في كلتا الحالتين لا يحيدان عن مبدأ: إن الأميركي دائماً على حق، ودائماً بطل، وإنسان فيما الآخرون أشرار، وحوش وضد البشرية.

في الأعظمية، حيث تسكن والدتي وأخي الأصغر وزوجته وأطفاله الثلاثة في منزل من طابقين، والدتي هجرت غرفة نومها في الطابق العلوي وكذلك فعل أخي وزوجته وأولادهم وأصبحوا ينامون في أحد ممرات البيت الأكثر أماناً، حيث لا شبابيك أو أبواب فيه.

في إحدى الجلسات الحميمة حيث تجتمع العائلة احتفالاً بوجودي

وتتذكر، تروي والدتي التي تخطو خطواتها السبعينية الأولى، يدعمها الأطفال، أولاد إخوتي بمشاهد تمثيلية، كوميدية، لحظات الرعب، التي كانوا يعيشونها لدى مرور طائرة أميركية أو أحد الصواريخ فوق رؤوسهم تقول:

ـ «...يُمّه ... يُمّه. (تشير بيدها بمعنى يا ويلي). لمن تجي الطيّارة شيصير بينا؟

يُمّه، إحنا نكون قاعدين هنا، بهالزاوية، والصوبة (المدفأة) مشعولة بالنص، ما نحسّ بْنَفِسنا إلّا طرنا هناك (تشير إلى الزاوية المقابلة)، وصرنا واحد فوق الّلاخ مكومين والتهبَت الصوبة، وانطفت، وانجفت (انكفأت) على راسها، وما نصدق شوكت تروح الطيارة».

والدتي هنا تقصد أن هواء الطائرة أو الصاروخ، يدفعهم من إحدى زوايا الغرفة إلى زاوية أخرى في رمشة عين ومن دون أن يعوا ما حصل إلّا بعد أن يصبحوا مكومين فوق بعضهم البعض.

الملعون حمودي إبن أخي (٤ سنوات) وأخته سحر (٧ سنوات) يقعان أرضاً من شدة الضحك وهما يقلدان جدتهما لحظة سماعها صوت الطائرة المغيرة على بغداد، سحّورة تقلد جدتها تقول:

- «... بيبي (جدتي) بس تسمع صوت الطيارة جاية من بعيد، تصيح يُمه... يُمه، إجتّي، ولْكُم إجتّي، وتشيل مخدتها، تحطها على راسها، وتقعد بالزاوية وتوَلوِل، وتبكي، يُمه عزا، ولكُم رح نموت...». ونغشى جميعاً من الضحك، وهي تضحك بدورها وتقول: ولْكُم رح يصير بينا هالمرة مثل ما صار ذيج المرّة، وانجس،

هاي شلون عُمُرْ...».

أما الأخبار المتداولة حالياً في الصحافة والإعلام العالميين، فغالباً ما يحوّلها العراقيون نكاتاً مرحة، على سوداويتها، ومُلَحاً بمصطلحاتها الجديدة «الأنموفيك»، و«الكيماوي» وطائرات «يو تو» وبعضها حول بوش وباول ورايس وتشيني وغيرهم.

الأطفال صاروا يعرفون تلك الأسماء ويحفظون المصطلحات، قبل أن يقرأوا ويكتبوا، فالحروب وسّعت قاموس الصغار والكبار اللغوي وأغنت مصطلحاتهم وأحاديثهم تبعاً للسائد. فلجنة المفتّشين عن الأسلحة الكيماوية أصبحت «المتَفَشّين» على لسان حمودي، و«الأنموفيك» تلاحق كل من يُطلق «الريح». فحذار من أكل الفول والحمص والحبوب والباقلاء، فلن ترحمك «الأنموفيك». ثم ماذا لو ضلّ صاروخ ما طريقه، أو أصيب بالحوَل، أو اختل عقل الكمبيوتر، وجنّ جنونه، فأطلق صواريخه شيش بيش؟؟

يا إلهي...

والآن الكل يتهيأ لمحنة طويلة الأمد. الأحاديث تدور غالباً حول وسائل الصمود والاستمرار. شاهدت خيماً عملاقة موزعة في أطراف الأحياء، والشوارع في بغداد وحين استفسرت عنها قيل لي إنها خيم أقامها أفراد من «الحزب»، تحتوي على المؤن اللازمة من ماء وطعام وأدوية وسيارات إسعاف، وهم يقومون الآن بإبلاغ الأهالي عدم التجول أثناء الغارات والقصف، وكل ما ينقصهم سوف تؤمنه لهم هذه الخيم.

إضافة إلى قيام الدولة بحفر آبار ارتوازية في كل منطقة، لتكون البديل عن المياه التي سوف تنقطع بطبيعة الحال نتيجة تدمير البنى التحتية. فيما قام كثيرون بحفر آبار خاصة بهم، كلّ في حديقة منزله. إلّا أن الكثير من هذه الآبار يبدو أنها غير صالحة للشرب، بل للخدمة اليومية فقط. ففي الأعظمية قالت لي خالتي إن البئر التي حفروها وصرفوا عليها الآلاف تصدر رائحة كبريت خانقة والفحوص أثبتت عدم صلاحيتها لشيء.

الحيرة تصيب المقتدرين حول ماذا يخزّنون أو يشترون أو أين يضعون ما يشترونه، وما هي الأولويات، أما الفقير منهم فارتاح إذ لا يفكر بالشراء والتخزين لأنها مسألة محسومة سلفاً.

إبن خالي يسكن في الدور الثاني من فيلا مشتركة مع أهل زوجته. وحموه خاف على عائلته من النقص في المواد، فقام أولاً بحفر بئر ماء. وكذلك بنى غرفة في باطن الأرض لتخزين المواد وضعوا فيها كميات كبيرة من أنواع الحبوب والتمر فيما زوجته كانت تعاتبه على كميات التمر الكبيرة ماذا ستفعل بها، تقول له يا رجل هل سنبقى سنوات من دون طعام؟ ويحمدون الله على أن مساحة الحديقة كبيرة فخصصوا حفرة مصفحة بالإسمنت لتخزين البنزين والنفط للشتاء.

أما المرضى فلهم همومهم الكبيرة، وبخاصة أولئك ذوي الأمراض المزمنة الذين يحصلون على أدويتهم بانتظام من الدولة عبر المراكز الصحية وبأسعار رمزية، إذ كيف سيتمكنون من الذهاب إلى المراكز لجلب الأدوية؟؟

زوجة أخي الأصغر تحمد الله في كل لحظة أنها وضعت حملها قبل أربعة أشهر، فيما زوجة ابن عمي الحامل في شهرها الأخير، كانت مضطربة، قالت لي حين رأيتها إن: «موعد ولادتي بعد أسبوع وبوش يهددنا وقد تبدأ الحرب في أي لحظة، فلماذا الانتظار؟». في اليوم التالي رن الهاتف وإذ بهم يخبروننا بدخولها المستشفى وبأنها أنجبت بنتاً سمتها فرح. إذن هي فضلت الوضع قبل موعد ولادتها بأسبوع بعملية قيصرية، خوفاً وتجنباً للمجهول.

وهكذا حتى الولادات يستبق بها النساء «الضربة» كي ترتاح إحداهن من المعاناة فيما لو جاءها المخاض في عزّ الحرب.

صفعة الباب، من هبوب هواء، تُجفل والدتي فتصرخ: بدأت الحرب؟ بوق السيارة العالي يتخيله البعض صوت صافرة الإنذار، فيقول: بدأت الغارة. فراقيع العيد تبدو للبعض إطلاق نار واشتباكاً وغيره. الأعصاب مشدودة، متحفزة، نتيجة الترقب والانتظار والإحساس برعب مسبق.

لماذا جئتِ؟ ــ سألوني مراراً ــ هل للوداع؟

السؤال لا يبرح مخيلتي. على أن الجواب كان يدور حقيقةً في داخلي قبل أن أقرر السفر إلى بغداد. فطوال سنوات وجودي في بيروت فقدت العديد من أحبائي من دون وداعهم، ولا أود تكرار الغصة هذه المرة. وفي الحقيقة، وددت توديع الجميع هناك، وكل ما لي صلة به، لا توديع أعزائي الموجودين من عائلتي وأهلي وأصدقائي فحسب، بل أيضاً لتوديع الأمكنة، والمشاهد المعششة في ذاكرتي، المحفورة في مخيلتي، منذ الطفولة. خفت من عدم قدرتي على

رؤيتها مرة أخرى، أو أن أراها فيما بعد مشوهة أو مطمورة تحت الركام، فأندم وأندب في حال عدم اتخاذي هذا القرار. في كل الأحوال، كان مجيئي إلى بغداد صدمة للمقربين والأصدقاء، وبخاصة أمي وأخوتي الثلاثة الذين حاولوا ثنيي من دون جدوى، فالنداء في داخلي أقوى من كل محاولاتهم، شيء ما كان يقول لي هيا، تعالي الآن، فمن يدري ما سيحدث؟

فلطالما جلست إلى مكتبي في الجريدة في الأيام الأخيرة وعيد الأضحى على الأبواب، والحرب أيضاً. فجأة والأحاديث تدور رحاها، رفعت سماعة التليفون، سألت أحد وكلاء السفر فيما إذا كانت هناك سيارة إلى بغداد. خيّب أملي للحظة، إذ أبلغني بوجود رحلة في صباح الغد الباكر، إذ لم يكن بإمكاني الذهاب من دون فيزا فجواز سفري لبناني، ولا أحمل جواز سفر عراقياً بسبب منع العراقي من جوازَي سفر في وقت واحد، إذ إنهم خيّروني منذ سنوات بين أحد الجوازين فاخترت اللبناني وبذلك تم إسقاط أو إلغاء العراقي.

حصلت في الصباح التالي على الفيزا، حجزت مقعداً في الطائرة الوحيدة التي بدأت رحلاتها منذ فترة وجيزة إلى العراق والتي تقلع من دمشق، مع شركة «صقر الخليج» التي تخرق الحظر الجوي إلى بغداد، ولا يمكن لإنسان أن يتخيل كم أن هذا الخرق أنهى معاناتنا الطويلة في رحلات برية لا يمكن تسميتها سوى «رحلات العذاب» بين بيروت وبغداد، والعكس،وكانت تستغرق أحياناً يوماً وربما أكثر، تبعاً لنوع سيارة النقل، والتأخر عند الحدود وغيرها من معوقات لا تعد، ولهذه الرحلات حديث يطول، ذو شؤون وشجون.

كان النداء يأتيني بقوة من بغداد، يناديني فلا أستطيع رده. أجمل نداء كان من الذكرى، من الطفولة، من بيتنا القديم في حي «شارع فلسطين». من شجرة التوت التي ترعرعت في حضنها وعلى زنودها. تلك التي زرعها والدي رحمه الله أوائل الستينيات في حديقة البيت الخلفية الواسعة، مع أول «طابوقة» في حجر الأساس. نمَت، التوتة وكبرت، وكبرتُ معها. كانت أغصانها العالية، الحضن الدافئ الذي يحتضنني طوال ساعات النهار في بوح وغناء لا ينتهيان، أقطف توتها الأحمر اللذيذ أو أناكف دود القز وشرانقها، وفي المساء يحين موعد مغادرتها والقفز من أغصانها إلى أحد بيوت الجيران، فلطالما اختصرت هذه الشجرة المسافات كلها. كانت الأذن الصاغية والقلب الحاني، حين تنشغل والدتي بأخوتي الأربعة، ووالدي يعمل في الليل والنهار لتأمين العيش. وكانت وسيلتي للذهاب إلى المدرسة، عبر أغصانها الملاصقة تماماً لزاوية بيتنا الخلفية من جهة اليسار. وحين أسمع رنين الجرس النحاس اليدوي معلناً بدء الاصطفاف في الطوابير، أحمل حقيبتي، أعربش على التوتة وفي لحظة أكون في طابور صفي. وفي العصريات أو المساءات، توصلني أغصانها إلى حدائق صديقاتي، ندرس، أو نلعب، نقطف الورود، أو نرش بعضنا بالمياه، بعدها يحين موعد النوم، وأعود مجبرة إلى البيت. لكن كان يطيب لي أحياناً، المبيت عند جيراننا الذين يدينون بـ «الصابئة» فأتظاهر بأنني غافية فيضطر أهلي عندها إلى الذهاب وتركي نائمة، إلّا أننا كنا نقضي ساعات الليل في اللغو واللعب حتى ينال منا التعب ويغلبنا النوم، وأتقصد أحياناً قضاء أيام عيد «الكرصة» لديهم والذي لا يستقبلون فيه زواراً ولا يفتحون بابهم لطارق لكن يصنعون ألذّ الطعام.

منذ فترة بدأت أفتقد حديقتَيْ بيتنا الفارهتين، إذ كانتا المسرح الذي

شهد استعراضاتنا الطفولية الساذجة حين كنت وصديقاتي نقضي بعض الوقت في تقليد استعراضات الفنانين ورقصهم وغنائهم في الأفلام.

هما مسرحنا وملاعبنا وملاذنا الصيفي، نغرق في الماء، أو نختبئ بين الورود التي يعتني بها بستاني خاص ينهرنا كلما رأى عِرقاً مكسوراً أو وردة مقطوفة. كثيراً ما يستبد بي الحنين إليهما في كل ذكرى ومناسبة. للمرة الأولى افترقت عن دار الطفولة هذه أواخر الستينيات، حين اضطر والدي تحت وطأة الضغوط المادية، إلى السفر إلى السعودية حيث حصل على عقد عمل فيها، وأبى حينها أن يتركنا أنا وأمي وأخوتي الأربعة في بغداد، حملنا مع حقائبه إلى الرياض وعيوننا شاخصة نحو بيتنا وحديقتينا ونخلات البرحي الصغار وشجرة التوت الكبيرة حاضنة أحلامنا.

أربع سنوات في السعودية لم يبارحني وأخوتي حلم العودة، فكل شيء، من الألف إلى الياء، كان مختلفاً في الرياض عما هو في بغداد. الحياة كلها مختلفة، لذا عدنا بعدها إلى بغداد لكن،لم نهنأ بعودتنا إذ عادت الضغوط المادية تخنق الأحلام. والدي كان معلماً، ويعمل مساء محاسباً في شركة الدامرجي، وكاد أن يكمل دراسته في ماجستير العلوم السياسية من جامعة هامبورغ في ألمانيا لولا تعرضه للسرقة في أحد أيام عطلة له كان يقضيها في بغداد قبيل أن يعود إلى ألمانيا، فلم يتمكن من الذهاب لأنه لم يعد يملك ثمن التذكرة. وكان شاعراً معروفاً في الأوساط الثقافية والأدبية منذ الأربعينيات، إلّا أنه كشاعر فضل الانزواء في البيت، والتوقف عن تأليف القصائد، إلّا نادراً منذ السبعينيات، على أن يكون بوقاً لأحد أو تحت رحمته. لذا كانت مغادرتنا الأخيرة للبيت أواسط

السبعينيات من دون عودة، إذ باعه والدي وسط صدمتنا وحزننا.

منذ العام ١٩٨٠ عام استقراري في بيروت، وأنا أزور أهلي مرة في كل عام. لكن ذلك الحلم الجميل، حلم الطفولة المليء بالفرح والمرح، على الرغم من حفره عميقاً في داخلي، وأنا أتحدث عنه الآن وقلبي ينفطر، إلّا أنه لم يشتعل ويتوهج كما هو اليوم. طوال الفترة الماضية كانت مرات قليلة، داهمني فيها الحلم في ساعات النوم أو بعض ومضات اليقظة. لكنه اليوم يكاد يفلق صدري ويفجره. فكان سبباً إضافياً كافياً ليجعلني في لحظة، أقرر السفر، لإلقاء النظرة ربما الأخيرة على معالم طفولتي العذبة، المرحة، الشقية، قبل أن تشوهها تقنيات الحرب المدمرة. وهكذا وصلت بغداد وكان ما كان من استقبال أهلي وزرت بيت الطفولة وليتني لم أفعل، إذ اكتشفت أنها ليست الحرب وحدها التي تدمر الأحلام والذكريات.

قصدت بيتنا القديم. بعد تردد وضعت إصبعي على جرس البوابة الخارجية المقفلة، على غير عادتنا أيام زمان حين كانت بوابات أسوار البيوت لا تقفل، وأيضاً الأبواب الداخلية التي لا أذكر أننا أقفلناها مرة بل تبقى مشرعة ليل نهار من دون خوف من لصوص أو دخلاء. اليوم أرى كل بوابة، أو باب صغير أو شباك، تقفل بأقفال عديدة، إذ كما يقولون أصبح الكحل يسرق من العين.

على كلٍ خرج شاب، سألني عن هويتي؟ تلعثمت. قلت باسمة: هذا البيت بناه والدي. تربيت فيه. فقط أريد إلقاء نظرة سريعة من الخارج، هل تسمح؟ الشاب رحّب باستغراب، وبشبه ابتسامة مستهزئة، قال: تفضلي، مشيراً بيده إلى الدخول. خطوة أولى خطوتها داخل البوابة أنذرت بتغيرات كبيرة في البيت. لم يبق في

الحديقة الأمامية سوى بضع أشجار من تلك القديمة، إذ اضطر أصحاب البيت إلى بناء بيت صغير ملحق نسميه في العراق «مشتمل» لأحد أولادهم المتزوج حديثاً ليسكن فيه. شعرت بانقباض، وتوجست من هذا التغيّر، إلّا أن الأسوأ الذي لم أتوقعه حدث بالفعل. أكملت خطواتي إلى الحديقة الخلفية، تسمرت أمام بيت آخر ملحق كذلك «المشتمل» الأمامي. لا أثر لحديقة، ولا أثر لشجرة التوت.

تنبهت على صوت الشاب يدعوني إلى دخول المنزل، لكني عدت أدراجي من دون أن أنبس بكلمة، بسرعة اخترقت البوابة إلى الخارج ترافقني دمعتان تحجرتا في عينيّ.

وداعي لأهلي وبيتي وأصدقائي، لم يشبه أياً من الوداعات العشرين السابقة. الدموع التي ذُرفت على الطريق من أهلي وجيراني حتى الأطفال الصغار أولاد أخوتي كانت تنذر بشعور خفي مرعب، ترى هل هي النهاية؟؟ ففي رأس كل واحد منا كان يدور السؤال نفسه: ترى هل سنرى بعضنا مرة أخرى؟

ألبوم عائلة الزميلة الآتية من بغداد (بلى ما زلنا على قيد الحياة)

الخميس ٦ آذار ٢٠٠٣

بقلم: سامر أبو هواش

زميلتي (سحر طه) الآتية من العراق تريني ألبوم الصور العائلية التي التقطت في بغداد خلال زيارتها الأخيرة قبل نحو أسبوعين. يفترض بالأمر أن يكون عادياً، وعابراً.

مجرد صور عائلية لا تخص سوى صاحبها ومن يظهر معه فيها، غير أن شعوراً بالعمومية (الخاصة) تسرب إليّ وأنا أتفرج على هذه الصور، وينساب راسماً ما هو أبعد من المرئي، اليومي، الروتيني، الاعتيادي.

(*) سامر أبو هواش، كتب المقالة إثر عودتي من بغداد، وكان زميلي في الصفحة الثقافية في الجريدة.

رحت أبحث في الصور عما يتجاوز مألوفها، مألوف عيش أصحابها، إلى الأثر الدالّ والبعيد، يحكمني سؤال واحد ملحّ: كيف يعيش الآن أهل بغداد؟ كيف هي أشكالهم؟ كيف هي بيوتهم؟ كيف هي أوقاتهم؟ الصور المتدفقة عبر الفضائيات، المحكومة بهاجس الحرب وانفعالاتها، لا تظهر هذا الاعتيادي. لا تظهر أفراداً، بقدر ما تظهر الجماعة كلها، الشعب برمته، في صورة واحدة منمذجة.

ألبوم عائلة الزميلة سارّ ومؤلم، في آن واحد. وعلى ملامح «أبطاله» أنفسهم، حراكهم داخل الصورة، نجد هذه الصورة المزدوجة، القائمة على سطح واحد. السرور بالاجتماع العائلي، والأسى أو القلق الطافح على الوجوه. في صورة ترى وجهاً يبتسم، أو يفور ضحكاً، وفي صورة تالية تراه غارقاً في تأمل بعيد، أكثر من مسحة حزن، يمكن القول قلق مستبد. رحت أبحث في تلك الصور عن أثر عيش اعتيادي. تأملت الجدران، والرسوم التي عليها، المطبخ وأدواته، غرفة الجلوس، عاقداً المقارنة بين هذه المشهديات، ومشهد بيتنا، إذ يتحول محطة اجتماع، تطفو على سطحها الأوقات الآنية الراهنة، وفرة السعادة، وفي عمقها، المشهد الآخر الثابت، البيت في حال الكمون: أشياؤه المعلقة، كنباته القديمة، ممراته، طلاء جدرانه الباهت، أشياء تبقى مع أهلها القليلين، بعد انفضاض الجمع. هذه حال العراق أيضاً.

العراق، على السطح يستقبل «زواره» و «أنصاره» من العالم أجمع؛ وفرة السعادة التضامنية الغامرة، جنباً إلى جنب الإشارات والصور الباقية، المتجاوزة الحدث وراهنيته الاختزالية القاتلة.

أكثر ما يلفت النظر في ألبوم الزميلة العائلي هم الأطفال. إنهم يضحكون. سعداء. مثارين. محتضنين. يتوضعون أمام الكاميرا بثيابهم الجديدة، وشعورهم المرتبة، يتحلقون حول الزائر، وحول

بعضهم بعضاً، يحيون ذكرى ما. ذكرى ما لا يدركون بعدُ كم يمر سريعاً.

يأخذني الخوف والتوجس على هؤلاء الأطفال. الكبار ألفوا الخوف، وعاصروا التحولات، واختبروا الآلام الشتى. هؤلاء الأطفال لم يألفوا شيئاً بعد. ينتظرون. يفهمون بعض ما تأتي به الأخبار، يخافون على الأكبر منهم. يمارسون براءة غير اعتيادية، إذ يضحكون ملء وجوههم وقلوبهم، وكأن ما يحدث في الخارج، لا يمر على مشهد التمامنا واجتماعنا هذا. تملك نظرات الأطفال قوة اليقين. تملك ابتساماتهم الهشة، التحدي، غير المقصود، للهشاشة. قلت للزميلة متعجباً: «إنهم (أي الأطفال) يلبسون ثياباً جميلة» فابتسمت وقالت لي «أسواق بغداد مليئة بشتى أنواع الثياب». لكن عجبي لم يكن من وجود الثياب أو عدمه، بل من رؤية هؤلاء الأطفال «يمارسونها»، يمارسون هذه الثياب، من غير أن تعكر صفو فرحتهم هذه، بالثياب الجديدة، جلبةُ حرب آتية من بعيد.

في البيت حديقة. «كل بيوت بغداد فيها حدائق» تقول الزميلة. وأتذكر نصيحة الرئيس العراقي قبل أيام، لكل مواطن عراقي، بأن يحفر خندقاً في حديقته. تخيلت هذه العائلة، هؤلاء الأطفال محشورين في خندق. ليس بالتخيل السارّ أبداً.

تبرز بين الصور صورة الأم لا حاجة بنا إلى إجراء الإسقاطات. لكن أية قوة تنبعث من وجه هذه المرأة المسنّة، بشعرها الأبيض وزيها الأسود. وأي تعب، وأي هشاشة، وأي ذاكرة. وجه يقول بيتاً، وشوارع، وأزمنة أخرى. يقول ألماً غائراً وبعيداً. وجه يقول تعاقب الأحداث، والسنوات، رحيل من رحل، الخوف على من بقي، والاشتياق الحائر على من هو بعيد. وجه حافل. وجه غامر. وجه

فائض إلى آخره. هكذا هو وجه جدتي: نصدق أمام وجه كهذا. أعني أي صورة تبدو حقيقية، أو أكثر حقيقية؟ الذاكرة «الشابة» بمسراتها، وأوقاتها النهارية الناصعة، أم الصورة الحالية، الواقع، بتكسّراته وتشظّياته، وأحزانه البالغة. أي صورة نصدّق لبغداد؟ يرسم الراحل غالب هلسا في «ثلاثة وجوه لبغداد» هذه المدينة العجيبة من خلال تراكم طبقاتها، طبقات عيشها، ومعانيها المختلفة. لكن في الصور كافة، التي لا يغيب عن أي منها وجه أنثى، امرأة ما، بغداد مدينة فوارة بالحياة. هل أصبحت هذه البغداد أثراً بعيداً إلى هذه الدرجة؟ أتأمل ألبوم الزميلة العائلي أتألم من حضور المفارقات بهذه الكثرة، بهذا الإيحاء المفجع. العائلة: هل هي مجتمعة حقاً؟ هل هذه الأوقات «حقيقية»؟ كيف نميّز «الحقيقي» من الحلم به وتوهمه. كيف نخلص (نستخلص) المسرات الطافية على سطح الصورة، مما يعتمل فيها من ترسبات وجع راكد أو كامن؟ كانت الصور مفاجئة بالنسبة إليّ، كشمس تشرق فجأة على العين، فتسبب، بقوة نورها، عمى جزئياً للبصر: «إنهم يعيشون» كانت تقول لي هذه الصور، وكان ذلك مفاجئاً. أذكر أنني التقيت صديقاً آتياً من رام الله بعد الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية. كان الصديق الشاعر يضحك، يناقش بحماسة، يقفز على الأرض قفزاً، وبدت صورته غريبة. هل أردته محبطاً مثلاً؟ هل توقعته منهاراً؟ فهم الصديق عجبي هذا فقال لي: «ما ترونه على الشاشة مختلف عما نعيشه، الخراب أكثر مما ترونه وأعمّ، وكذلك أشكال الحياة أكثر تعدداً وأعمّ». الصورة التلفزيونية تختزل الحياة، وهذا ما لا تفعله صور عائلية، مرتجلة، بريئة، يجتمع فيها أفراد الأسرة في كادر واحد، مبتسمين، أو ضاحكين، ناظرين إلى الكاميرا، أي إلى الناظر إليهم عبرها، قائلين له: «بلى ما زلنا على قيد الحياة».

... ثم انقطعت الاتصالات

٢٢ آذار ٢٠٠٣

في الأيام الخمسة الأولى للحرب أنعم علينا صقور الإدارة الأميركية بوش ورامسفيلد وفرانكس ووو وتوابعهم، بنعمة التحدث مع أهالينا في العراق، ثم قالوا لنا: كفى.

...ثم انقطعت الاتصالات. هذا ما كنا نخشاه منذ البداية.

ها قد أصبحنا تحت رحمة القلق والشكوك والتخمينات السوداء. تقطعت أوصالنا، وانقطعت أخبارهم. شعب العراق بأكمله، أصبح في عزلة تامة. في الداخل لا أحد يعرف أخبار أحد في المناطق الأخرى. وفي الخارج لا أحد يعرف أخبار من هم في الداخل.

نحن الذين في الخارج، عزلتنا خطوط التليفون عن أهلنا في الداخل.

كان هذا الخوف الأكبر، أن تنقطع الاتصالات الهاتفية، لأنها كانت الوسيلة الوحيدة التي تربطنا بهم، وتطمئننا عليهم.

وها هو الخبر اليقين يأتينا عبر الصورة، وعشرات الفضائيات تبث خبر قصف الطائرات الأميركية لمراكز الاتصالات في العراق. وتباعاً نسمع: مركز الاتصالات في الأعظمية (منطقة) سكن أهلي، وكذلك مركز الاتصالات الرئيسي في «السّنك»، وغيرها في مناطق أخرى، وأكثر من جولة قصف على المركز نفسه، ربما للتأكد من تدميره وقطع خطوطه...

بدأت سلسلة قصف المراكز الواحد تلو الآخر، حتى لم يبق هناك خط واحد أو أمل واحد في معرفة ما يجري، من مات ومن بقي حياً، ليخيم بعدها الصمت المطبق، القلق والارتباك والخوف. لم يبق سوى متابعة الأخبار والمشاهد، التي تكاد تكون غير عقلانية أو منطقية، لكن هل هناك منطق في الحرب؟ أحياناً نرتاح إذ لا نسمع في الخبر ما يدل على وقوع غارة أو قصف على مناطق فيها أهلي أو أخوتي. وفي حال العكس تصبح الليالي جحيماً وأرقاً لا يطاقان، والنهارات أخبار قتل وتدمير.

غاب صوتهم جميعاً. صرت أتخيل مشهد العائلة والجميع يجتمع إلى الغداء أو العشاء، أسمع تعليقاتهم حول الأوضاع. وأسمع صوت أمي يرن في أذني وصورتها إذ أستعيد أحاديثنا السابقة على الهاتف. رحت أستعيد لمحات من تلك المكالمات في الأيام الأخيرة قبل أن تسري البرودة إلى الخطوط، ويطبق عليها الصمت الإجباري، القاسي. اكتشفت أنها كانت مقلّة جداً في إجاباتها،

مرتبكة أو أنها متعبة. ولم تكن هي الوحيدة كذلك، الجميع كأن على رؤوسهم الطير. أخي الأصغر عقيل (أبو سحر) كلما سألته عن مسألة تأتي إجابته مختصرة جداً. على ألله. إنشاء الله. ماذا نفعل؟ ماذا باليد؟ اللي مكتوب رح نشوفه. وهكذا إجابات مثقلة بالتسليم والإحباط ووو اليأس.

تمر الأيام ثقيلة. قاتلة. هواجس وأفكار تطيح بالهدوء والسكينة، ماذا نفعل لنسمع ولو خبراً يطمئننا عنهم؟

أتحدث بصيغة الجمع لأني واحدة من عشرات أعرفهم يعيشون القلق والتمزق ذاته ويسألون الأسئلة نفسها.

ترى ماذا يفعلون؟ كيف يؤمّنون حاجاتهم اليومية؟ أين ينامون، في أي ممرّ أو زاوية من البيت؟ أتخيلهم في لحظات رعب والصواريخ تمطرهم في كل لحظة. الأطفال يصرخون يبكون...

ترى هل غادورا بغداد؟ لكن إلى أين وكل قرية من العراق أصبحت هدف الأميركان والبريطانيين من ورائهم. لا، هم أكيد بقوا في بغداد. ربما ذهبوا إلى بيت أخي منير في حي بغداد الجديدة. لكن في آخر اتصال بيننا قالت والدتي إن بيته يغصّ الآن بأهل زوجته سهام، الذين تركوا منازلهم في حي الجادرية، وهو حي قريب من جامعة بغداد، ويقولون بأنه خطر، إذن هم بقوا في بيتهم في الأعظمية. لكن ماذا لو ذهبوا إلى النجف؟ ربما فعلوا فهناك بيت عمي مهدي رحمه الله وأيضاً بيت ابن عمتي المحامي ناظم، الذي عاد من ليبيا السنة الماضية، إذ لم يستطع البعد عن عائلته. لكن الذهاب إلى النجف فيه مخاطر والطريق طويل، مسافة ثلاث

ساعات، وغير آمن في ظل القصف والقتال.

هل ذهبوا إلى المحمودية، هي قريبة أقل من ساعة من بغداد، هناك ابن عمي إحسان حيث يسكن مع زوجته ولا أولاد لديه، ربما يتسع لهم المكان. لكن ها هم يقصفون المحمودية أيضاً، وتضيء لياليها الصواريخ وتعيث ببساتيها وأزقتها الزراعية البسيطة الضيقة.

أعتقد أنهم لا يعرفون أخبار بعضهم البعض. فالتنقل أصبح متعذراً بين المناطق في بغداد فما باله بين محافظة وأخرى.

يا ألله. ما نفع كل هذه الأسئلة إن لم تكن لها إجابات؟ في حياتنا اليوم أصبحت كل الأسئلة بلا إجابات. حتى موتنا العشوائي، القاسي والجماعي لا نجد له إجابات، ونحن فيما يبدو اعتدنا هذه الحالة منذ زمن طويل، نتساءل من دون الحصول على إجابة لأي سؤال. أصبحنا نسأل فقط ونمضي دون انتظار الجواب، بتنا نعرف بأن لا إجابة لسؤالنا.

ننتظر، لا شيء سوى الانتظار. نراقب الأخبار وننتظر، لا ندري ماذا ننتظر، لكننا ننتظر. نعد الساعات فربما نلمح بارقة أمل أو بصيص ضوء لقرب انتهاء الحرب.

ومرّ شهر آذار. بطيء ثقيل، لعله أبطأ شهر يمر في حياتي، وأمرّ شهر بأيامه السود ولحظاته الدامية ومرارة القتل والتدمير، وماذا فعلنا سوى التفرج والبكاء والحنق والسّباب، والغضب والألم يعتصران القلب على ما يحدث ولا حيلة بأيدينا.

الشعوب الغاضبة لم يعد لها تأثير. لا تظاهرات أوقفت الحرب ولا اعتصامات ولا قصائد ولا مقالات ولا اعتراضات على طول الكرة الأرضية وعرضها، لا شئ يمكن أن يؤثر في قرارات الدولة العظمى.

أنا وأصدقاء وصديقات من العراق، هنا في بيروت، مصابون بالشلل التام. بالكاد نستمر كل في مهنته. نأكل، نلبس، نعتصم، نتظاهر، نشاهد الأخبار أربعاً وعشرين ساعة، نبكي بعد كل خبر أو مشهد من مشاهد الموتى والدمار، نشكو همنا لبعضنا البعض، أو نفشّ خلقنا ببعضنا البعض، كثيراً ما تحتدم بيننا النقاشات، يزعل أحدهم من الآخر، وبعدها تعود المياه إلى مجاريها. وهكذا، ما باليد حيلة، ولا قادرون على إنقاذ أهلنا وبلدنا من هذه السلسلة اللعينة من الحروب.

في كل ذلك كانت الدموع رفيقتنا الوحيدة، وأنيستنا في محنتنا، هي التي كانت تخفف عنّا ضغوط الأخبار التي كنا نفتح أعيننا عليها منذ الصباح الباكر، وأحياناً في أنصاف الليالي فتقض المشاهد مضاجعنا، ومع ذلك نراها كلما أعادوها، نركز عليها أكثر. والريموت يحار ويتمرد من كثرة تقليب المحطات في سرعة وعصبية بحثاً عن معجزة ما، فالمسكين أصبح مفتاحنا الوحيد لمعرفة أخبار الأهل، فيما أصبحت الفضائيات رمزاً لبشاعة الإنسان، لكذبه، لجبروته وطغيانه.

الشاشة أصبحت رمزاً للحرب. فقدت جمالياتها، وألوانها البهيجة، لا ترينا سوى اللون الأحمر بدرجاته الحارة تصبغها ألوان النار والدم. ما بالهم، ألم يعد لديهم من أخبار سوى أشلاء تتكوم جبالاً في كل يوم؟

ما بال الشاشات لا ترينا سوى بيوت دُرست، سويت بالأرض أو حفرت فيها، أو ابتلعتها مع ساكنيها وأثاثها وسياراتها لتصبح أثراً بعد عين. ومع ذلك أصبحت معبودتنا، ملاذنا، إذ ترينا ما يجري هناك مما لا نستطيع رؤيته حقيقة.

ولا نصدق. لا نصدق ما نرى. لا يمكن أن تكون هذه بغداد. أو هذه المدينة العفراء الغبراء هي البصرة، أو الناصرية أو النجف أو الفلوجة أو المطار أو .. أو....

يا إلهي كم من أيام مرت تمنيت أن أنام ثم أصحو لأجد كل ذلك كابوساً، ينقشع مع الصباح، لكن...

هل حدث من قبل أن حاول أحدهم إسقاط شخص أو رئيس بمثل هذا التدمير والوحشية؟ وهل قَتلُ أو إسقاط نظام لا يمكن أن يتم إلّا بقتل شعب، وتدمير بلد؟ أين العقل والمنطق في كل هذا؟

يقتلون شعباً يقولون له نحن آتون لتحريركم، ثم يقولون: الآن أصبح الشعب الأميركي في أمان، حقاً إن شرّ البليّة ما يضحك.

يستخدمون السلاح الشامل، للتدمير الشامل، من أجل الكشف عن أسلحة الدمار الشامل. نعم إنها حزورة يصعب حلها.

إن لم يكن اسم هذه الحرب أو أسلحتهم هذه بشاملة فماذا يمكن تسميتها، جزئية؟ خفيفة؟ أم ماذا؟ هل من عاقل يمكن أن يصدق هذا الهراء، أو يفسره.

الشعب ما يزال يعاني من ضربة بوش الأب في عام ١٩٩١. من أطنان اليورانيوم المنضّب الذي أمطره به، وسبّب تلوث البلد، بسمائه وأرضه وزرعه، ونتج عنه عشرات الولادات المشوهة، وها هو جيل كامل بعد عشر سنوات من ذلك العدوان، مشوه، معوّق، ضعيف فيه كل العيوب.

وماذا بعد ضربة بوش الإبن، الأكبر بكثير من ضربة أبيه، واليورانيوم المستخدم أضعاف ذلك الذي استخدمه أبوه؟؟

ويح أهلي وأهلكم في هذا البلد الذي ستولد فيه أجيال أخرى معوقة، مشوهة، مريضة بشتى أنواع الأمراض السرطانية غير المألوفة، ومن عاش من أطفاله سوف تبقى ذكرى الحرب تقض مضجعه، وسيعيش حالات نفسية صعبة معقدة، فمن يعيد إلى العراقي صحته الجسدية والنفسية.

الآن لا اتصالات. فكرت، ليس لنا سوى الصليب الأحمر في بيروت، حسناً. اتصلت وتحدثت مع إحدى موظفاته. طلبت منها أن تساعدني في معرفة شيء عن أهلي. قالت: آسفة، الآن جمدنا أعمالنا في العراق بسبب الأوضاع غير الواضحة في البلد. سكتُّ لحظة بين مصدقة وغير مصدقة. ثم بغضب قلت لها: لكن إذا جمّدتم أعمالكم في عزّ هذه الأزمة، وفي وقت نحن بحاجة إليكم وآمالنا معلقة بكم وبمساعدتكم على معرفة مصير أهالينا في العراق، فمتى تكونون العون وتلبون حاجة الناس، إن لم يكن الآن. وتعلمون أن الاتصالات مقطوعة؟ من سيكون بحاجة إليكم حين تستتب الأوضاع وتعود الأمور إلى طبيعتها؟!

الكلمات كانت قاسية على المسؤولة التي تحدثت معها، لكنها تفهمت قلقي وعصبيتي جراء فقدان الاتصال بأهلي منذ قرابة الشهر. ثم عادت وطلبت مني العناوين والأسماء الكاملة وأرقام التلفونات وغيرها ووعدت برد الجواب في أقرب وقت، ورغم يأسي منهم ما زلت في الانتظار.

سامحيني أمي

الإثنين ٢٤ آذار ٢٠٠٣

سامحيني أمي لأني لم أستطع تهنئتك في عيدك. لم أستطع سماع صوتك عبر الهاتف. لم أتمكن من إرسال هديتك كالعادة في كل عام مع أحد المسافرين إلى بغداد.

أضعف إيماني، وبعد أن خذلني الهاتف، جلبت لك وردة في عيدك، وضعتها في مزهرية، وها قد بدأت بالذبول من عناء الانتظار.

سامحيني، وأنا ابنتك الوحيدة، ومع ذلك لم أكن معك في كل المحن التي مررتِ بها طوال السنوات العشرين الماضية.

سامحيني لأنانيتي، لعقوقي، إذ أعمى الحبّ بصيرتي وأنا بعد طرية، ودفعني إلى اختيار العيش بعيداً عنك. وأنت ووالدي رضختما لنداء قلبي، بكل حب وود وبصيرة. ولو علمتُ بكل الأهوال التي ستداهمكِ طويلاً، وتباعاً في غيابي لما اخترت غير المكوث إلى جانبك، كما فعلتِ دوماً قبل مغادرتي إلى بيروت.

سامحيني لأنك كنتِ أقوى مني في اتخاذك قرار البقاء، رغم أصوات طبول الحرب التي تصم الآذان، ورغم أنك عشت الحروب كلها من قبل وها أنت في انتظار الحرب المقبلة بقلب شجاع.

وسامحيني لأنك كنت أقوى حجةً من قدرتي على إقناعك بمغادرة العراق، والمجيء إلى بيروت.

أين أخبيء وجهي منكِ حين ألقاك؟ وا خجلي من الناس. لم يعد لدي حجّة أبرر بها بقاءك تحت وابل هدايا بوش لكِ وللأمهات العراقيات في عيدهن. هو بالتأكيد احتفل بالأمس بعيد أمه، جلب لها هدية، احتضنها وقبّلها كابن بارّ، ولا يهمه بعد ذلك إن أودى بالأمهات العراقيات إلى الجحيم.

الجميع يسألني: هل جاءت أمك؟ صار السؤال يرعبني، يقض مضجعي. بل أصبح مثل سكين تخترق أحشائي في كل مرة يسألنيه أحدهم. وأشعر بتأنيب الضمير من تماهلي وتقاعسي في عمل المستحيل لكي تكوني هنا، ولأني لم أستطع إنقاذكِ من قرارك.

يتعثر لساني، وأنا أجيب لا. لم تأت. وترتبك الكلمات كلما حاولت الشرح. أشيح بوجهي كلما رأيت علامات الاستغراب على

الوجوه السائلة، فمهما قلت، ومهما بررت، أو شرحت فإن كل ذلك دون ما أعرف وتعرفين.

أنا أعرف السبب، أو أسباب تمسكك بالبقاء في بغداد.

أعرف أن المسألة تتعدى تعلقك بالبيت الذي ضمك ووالدي أكثر من نصف قرن، قبل أن يرحل إلى دار البقاء.

أعرف أنه ما يزال معك، وإلى جانبك وحولك في كل لحظة وعند كل زاوية. أعرف أنك إن غادرتِ، تخافين عتبه عليك، على غيابك، على عدم زيارتك له في الأعياد والمناسبات تبدّدين وأخوتي وحشته، هناك حيث سجّي في النجف، وأنت التي لم تتخلف في كل فرصة ومناسبة عن موعد اللقاء معه، حضوره قويٌّ وطاغ لديكِ وكأنه لم يغب سنوات.

يا لقدرتك على تحمل صعاب وأهوال تعجز عن حملها حتى الجبال. يداك ممدودتان للجميع لم ينل منهما التعب ولم تكلاّ من عطاء. بل لم تفارق وجهك الابتسامة حتى في أحلك الأيام والليالي سواداً.

أعرف أنك كبيرة العائلة وعليك مسؤوليات جسام. حولك أخواتك الأربع، وأخواك وأولادهم وأحفادهم، وكذلك أخوتي الأربعة وزوجاتهم وأطفالهم، كلهم تحت جناحك. أنت تجمعين شمل أكثر من ثلاثين فرداً في العائلة.

أنت صلة الرحم، والوصل، ومقرّبة القلوب. تقسمين اللقمة

بالتساوي بين الجميع. قلبك مفتوح لمشاكلهم ومعاناتهم. لم يضق، يوماً ولم يسمعونك تتبرمين، أو تتأففين رغم فقدانك أعز الناس وفقدانك الأمل في مستقبل هانئ وصحة جيدة. تعانين الأمراض ولا شكوى، وإن شكوت من مرض نقول إنك تتدللين. أنت حضنهم الدافئ الذي أفتقده، وأنت محورهم، يتطلعون إليك ويلجأون وقت الحاجة، وفي المحن جميعها. المادية، العائلية.

تحملين همّ الجميع صغاراً وكباراً، يلقون على عاتقك الكثير من المسؤوليات، بخاصة في هذا الوقت العصيب. منذ بدء سنوات الحصار، علّمتهم التعامل بالمقايضة، وشجعتهم على التكافل الأسري، وبالتالي الابتعاد عن السؤال والعيش بكرامة.

وأنت بطبعك العجيب، تستحين من طلب المساعدة حتى من أبنائك، ومني. أسألك هاتفياً ماذا تحتاجين؟ ـ لاشيء. جوابك المعتاد في كل مرة.

أعرف أنك لكل ذلك لم تأتِ ولم تلبّي نداءاتي. لكن أعرف أن والدي منعك من المجيء، كنت تتساءلين بينك وبين نفسك:

ـ إن ذهبت إلى بيروت، فمن سأكلم حين ينتابني الأرق في لياليّ الباردة؟ وهو.. من سيكلمه إن أنا غادرت؟

لا. تقولين. أنا باقية هنا في غرفتي يسامرني هادي (والدي) بأشعاره المتناثرة في حافات الكتب وحواشيها، وعلى الورق وفي الدواوين والمؤلفات. هنا مكتبته بجوار سريري تبدد وحشة الليالي وشوقي إليه.

ترددين: ما أجمل خطه، النسخي، الكوفي، على الورق الأخضر، ذاك الشفاف الذي يشبه قلبه. ساعات تمر، هنا من دون أن أحس بالوقت، أسرحُ فيها، وأسترجع ذكرياتي. أقرأ كلمات حبه وأشواقه يبثها لي منذ الخطوة الأولى التي غادر فيها العراق إلى ألمانيا، رسائله اليومية التي أرسلها (بين عامي ١٩٥٧ و ١٩٥٨) من هامبورغ تنتظرني.

عيني، تقولين: اتركيني هنا. ماذا أفعل عندك في بيروت؟ هنا في بغداد رسائل كثيرة، تنتظرني أكثر من ثلاثمائة، أحتاج إلى وقت طويل لقراءتها. سأكملها وإن بقي لي عمر فسآتي إليكِ.

أخيراً سمعت صوتك يا أمي

الأربعاء ٢٦ آذار ٢٠٠٣

أخيراً وبعد خمسة أيام من المحاولات اليائسة للاتصال بها، لم أصدق حين أتاني صوتها عبر الهاتف.

ما أحلى رنين صوتها يعود إلى أذني حنوناً صافياً كعادته. وبنبرة لم تشبْها شائبة، ولم تكن حزينة مثل أغنيات العراق.

عكس ما توقعت، وعلى الرغم من أنني لم أشك يوماً في قوة تحملها، تخيلتها تبتسم وهي تسألني: شلونج سحورة؟

دهشت من نبرتها الواثقة، الخالية من خوف أو خفوت أو قلق . حدثتني بالتفصيل كيف يعيشون أيامهم وأين ينامون وكيف يقضون أوقاتهم ووو.

خجلت من ضعفي. داريت دموعي وحاولت جاهدة أن أحدثها بصوت غير مرتجف، وأن أتواصل معها وأسألها عن الكثير والكثير، لكني كنت أتأتئ، وأتعثر وأغص، تخنقني العبرة، ويهرب من فمي الكلام، ولا أعرف ماذا أسألها.

كانت تنقذني هي بحديثها. بعد جهد قلت: آني زينة. إنتوا شلونكم؟

مع ضحكة أحسستها أشبه بالسخرية قالت: زينين، الحمد لله. كيف سعيد والأولاد والعائلة؟

ـ كلهم يسألون عنكم، بالهم وقلوبهم معكم.

لم تترك لي مجالاً لمعاتبتها على بقائها في بغداد: لماذا رفضت المجيء، قلت؟

ـ أنت تعرفين. الأمور كلها كانت تعاكس مسألة مجيئي. وعسى أن تكرهوا شيئاً لعله خير لكم.

بسذاجة سألتها: هل أنتم خائفون؟ هل الانفجارات قريبة منكم؟ هل أصواتها تخيفكم؟

ـ يكفينا صوت صفارة الإنذار فهي ترعبنا أكثر من الانفجارات نفسها.

هل من صواريخ تقع بالقرب منكم؟

ـ في اليومين الأولين كانت الأصوات بعيدة نوعاً ما. لكنها بدأت تقترب منا أكثر، وباتت كأنها في منطقتنا تهز الأعظمية بأسرها.

وأين تجلسون وتنامون؟

ـ افترشنا أرض الممر الذي يصل بين المطبخ والهول. هناك وضعنا الأفرشة والأغطية حيث لا شبابيك أو زجاج، وبناء على تعليمات الدولة وضعنا البطانيات على الشبابيك والأبواب.

ـ والأولاد بالتأكيد خائفون؟

ـ الأولاد أحياناً يضحكون إذ يظنونها إحدى ألعاب الكمبيوتر أو فيلماً من الأفلام التي تعرض على التلفزيون. وأحياناً يبكون حين يسمعون هدير الطائرات وأصوات الصواريخ والانفجارات.

أمي طمأنتني على أفراد العائلة، أخي سمير الأكبر وكذلك منير، خالاتي وعائلاتهن والأعمام وأولادهم وعائلاتهم. قالت:

نتصل ببعضنا البعض كلما هدأ القصف. أو ربما يأتي أحدهم في زيارة خاطفة للاطمئنان في حال انقطعت الاتصالات، والبرودة تصيب خطوط الهاتف. الشباب يجرؤون على التنقل حين تتوقف أمطار الصواريخ ويبتعد هدير الطائرات.

أمس جاء أخوك منير وعائلته ثم عادوا سريعاً إلى بيتهم.

استغربت، فهم يزورون بعضهم البعض بين الغارة والأخرى على الرغم من المسافات البعيدة بينهم. شقيقي منير يسكن في «بغداد

الجديدة» وهي إحدى ضواحي بغداد، تبعد مسافة أكثر من نصف ساعة عن حي الأعظمية حيث تسكن والدتي ومعها شقيقي الأصغر عقيل وزوجته وأطفاله الثلاثة.

حين رجوتها أن لا يتنقلوا كثيراً قالت: هذا عادي وعلى الله.

تستأنف أمي حديثها:

بالأمس أخذنا جوجو ـ تقصد جعفر الابن الأصغر لأخي عقيل، وعمره ستة أشهر ـ إلى المستشفى إذ كان يعاني من زكام وسعال شديدين، لأننا كما تعرفين تركنا غرف نومنا الدافئة، وننام على الأرض في هذا الممر البارد وتيارات الهواء تهبّ علينا من حيث لا ندري. وهكذا لا نعرف كيف وصلنا المستشفى وكيف خرجنا منها وعدنا سالمين إلى المنزل.

عقيل شقيقي الأصغر، يسكن مع زوجته زينب وأولاده الثلاثة في الطابق الثاني من المنزل. تحدّث بتهكم وبرودة لم أعرفهما لديه، فهو شاب رغم مرحه، عصبي المزاج غالباً، ومثل كثير من الشباب العراقيين من جيله الذين لم ينالوا فرصاً عادلة في الحياة من حيث العمل خاصة، وقليلاً ما نالوا مسرة فيها، شاب ذكي يحمل شهادة الليسانس في علم الإحصاء من جامعة بغداد وكان في نيته إكمال الدراسة، لكن التجنيد الإجباري كان له بالمرصاد والحروب التي سبق وحطمت نفوس أشقائي الثلاثة سمير ونمير ومنير منذ بدايتها في العام ١٩٨٠، ومستقبلهم ونالت من شبابهم وصحتهم، طالته هو أخيراً وانضم إلى قافلة المجندين فيها إجباراً، لكن بقيت خسائره طفيفة قياساً إلى خسائر غيره.

قال لي في هذا الاتصال نفسه:

أخرُج صباح كل يوم، كما هي العادة، أشتري الخبز الحار والإفطار والبيض والماء وكل ما نحتاج له، فالأمور هادئة غالباً في الصباح، ونترك الباقي على الله.

ذكّرتني عبارته هذه بأيام الحرب العصيبة التي عشناها في الثمانينيات في لبنان. أيضاً كنا في الصباح نأخذ الأولاد إلى المدرسة ثم نذهب كل منا إلى دوامه وفي حال لم تنفجر قنبلة هنا أو يندلع اشتباك في منتصف النهار، نعرج للتبضع ثم نأتي بالأولاد ونصطحبهم إلى البيت، وبعدها ما تلبث أن تندلع الاشتباكات ويتفجر الوضع ونعيش حالة رعب، وتنقّل بين البيت والملجأ أو بين غرف النوم ولطالما افترشنا البانيو وأرض الحمام حتى اليوم التالي وهكذا. قد يبدو الأمر أقرب إلى الاتفاق (الأخلاقي) بين المتنازعين في كل زمان ومكان بأن يتركوا هامشاً للناس، وربما لهم أيضاً، للتسوق وغيره قبل أن يستأنفوا نشاطهم القتالي.

أمي التي بدأت أولى خطواتها في السبعينيات كانت تحاول التخفيف عني من خلال كلامها الهاتفي. تقول: لا ينشغل بالك. كلنا بخير وأعصابنا هادئة، اعتدنا القصف والأصوات التي تخترق آذاننا، لكن الفرج آت بإذن الله.

يا ربي ، كم تمنيت لو أني كنت هناك إلى جانبها. أحتضنها في لحظات الرعب، وأخفف عنها وطأة القهر، والخوف. زرتهم في عيد الأضحى، ظناً مني أني سأكون فعلاً معها ولو لمرة في حياتي، لكن بوش خذلني وأخّر هجومه الذي كان مرتقباً في العيد، وها أنا هنا

في بيروت أسهر الليالي، لا يغمض لي جفن، عيناي مسمرتان على بغدادي الجميلة. الجميلة حتى في عذابها، واغتصابها. وفي اشتعالها تتوهج عظمةً فتبدو أكثر شموخاً.

ها هي صابرة، صامدة، رغم صواريخ بوش التي تمزق جسدها وتنخره وتعيث بها تدميراً، أبيةً ستبقى رغم أنوف الحاقدين عليها، وسارقي ثرواتها وحضارتها.

كم وددت لو أن حديثي معها لا ينتهي، لو أن صوتها لا يغيب ولا تعود السماعة إلى مكانها آخذة صوت أمي معها.

عندما رأيت في التلفزيون حيّنا في الأعظمية ركاماً

الجمعة ٢٨ آذار ٢٠٠٣

كذّبتُ عينيّ. لم أصدقهما وأنا أرى بهما بيتنا وحيّنا على شاشة التلفزيون. حَسبتُني في خضم حلم مزعج أو كابوس مرعب في ليلة باردة ثقيلة الوقع، من كثرة ما ركزت ناظريّ على أخبار ومشاهد الحرب.

فتحتهما على وسعيهما للتأكد. نظرتُ، حدّقت للحظات، غير مصدّقة أنه شارعنا. قلت في نفسي: بغداد كبيرة وشوارعها متشابهة، ولا يمكن أن تكون حقيقة أو صدفة. صدفة أن أرى شارعنا وبيتنا على إحدى الشاشات، المسمّرة أمامها منذ بداية الحرب. قلت لهما: لا.. لا. وألف لا. لكن عينيّ أكدتا لي ما رأيت.

ثلاثة بيوت سُويت بالأرض. بيتان فقط يفصلان بين بيتنا وبيوت جيراننا المهدّمة بأحد الصواريخ «الذكية».

ثلاث عائلات أصبحت في لحظة، تحت الركام. اختلطت أشلاؤهم، دماؤهم، لحومهم وجلودهم بحطام بيوتهم وسياراتهم.

أفكّر: العتب ليس على عينيّ. الكاميرا خدّاعة، وأكرر بيني وبين نفسي: كثير من أحياء بغداد الواسعة وسع الدنيا، تتشابه، وبيوتها كذلك.. لكن هل أذناي تكذبان أيضاً، هل أصابهما خلل أو صممٌ؟ أقول: ربما لكثرة تفكيري، أصبحتُ خائفة من سماع ما لا أريد سماعه... أجل..هذا هو الأمر، لكن...

«حي الشماسيّة» في منطقة «الأعظمية». العبارة واضحة وضوح الشمس، تبعها مشهد البيوت المهدمة على ساكنيها وأثاثها وسياراتها على الشاشة. تابعَت الكاميرا سيرها حثيثاً، تصوّر... وها هما بيتا الجيران الآخرين، الجدرانهما متلاصقة، والملاصقة أيضاً لجدران بيتنا من اليسار والخلف. «بيت القابلة القانونية»، وبيت «أم سمر» وها هي بوابة بيتنا السوداء المزخرفة، والفانوس الأسود الذي يتدلى من سقف المرآب، حيث سيارة شقيقي التويوتا، التي يفترض أن تكون حمراء، لكنها أصبحت مرقطة بالأسود مع مرور السنوات. وكأنها مشاهد على شريط فيديو صوّرتُه أنا أو أحد أخوتي، لكن لا أدري متى وكيف؟

اختلطت مشاعري وأفكاري في تلك اللحظة من ذلك اليوم من أيام القصف الوحشي على بغداد. ماذا أفعل. مذهولةً، صرخت بزوجي:

ـ هذا شارعنا... سعيد! هؤلاء جيراننا، هذا بيتنا.

المسكين زوجي سعيد من ارتباكه، لم يعرف بماذا يجيب أو يقول. ابتسم للحظة مشككاً. لم أنتظر منه تعليقاً. سارعت إلى الهاتف وطلبت بغداد وانتظرت..

كانت لحظات طويلة، ثقيلة، قبل أن يأتيني صوت ابنة خالي، وهي نفسها زوجة أخي الأصغر (عقيل) مرتجفاً. عباراتها متقطعة لا ترابط فيها. أسمع من بعيد صراخ شقيقي وأطفاله. غار قلبي بين ضلوعي، وللحظة فكرت بالسوء. ماذا حدث: سألتها؟

ـ وقع أحد الصواريخ على الجيران. مات بعضهم وجرح كثيرون، والدنيا مقلوبة. ونحن في غاية الرعب، إذ كأنها الآخرة. هل هي الآخرة؟ سألت زينب .. وأجابت: أعتقد أنها النهاية. هكذا اختصرت لي زينب المأساة. مأساة الحي الذي كان آمناً هادئاً قبل ساعات، وقبل أن ينثره، ويغيّر معالمه، ويبعثر أهله، أحد الصواريخ الغريبة، المتوحشة كمطلقها، الآتية من على بُعد آلاف الكيلومترات.

تأكدت لحظتها من الخبر. قلت: هل أنتم سالمون؟ هل الجميع بخير؟

ـ نحن الحمد لله بخير. زجاج البيت تناثر طبعاً في الأرجاء. الحيّ حزين يمزقه الألم لفقدان الجيران الذين فاجأهم الموت بأبشع أشكاله. الأولاد خائفون جداً ويبكون طوال الوقت.

دقات قلبي تسارعت، وكانت تضرب بشدّة. سألتها: أين أمي؟

أسأل أخي: أين أمي؟ أريد أن أتحدث معها.

ـ إنها في السيارة في انتظاري، سآخذها إلى المستشفى؟ «الدنيا دارت بي». ماذا تعني بالمستشفى؟ هل هي مصابة، هل حدث لها مكروه؟

ـ لا ...لا، هي تشعر بتوعك، ربما هو ضغطها ارتفع بسبب هول القصف والمأساة. اتصلي بعد ساعة نكون عدنا من المستشفى.

ساعةً انتظرت. ساعة يفوق زمنها دهراً. في انتظار عودتهما من «مستشفى النعمان»، المستشفى الأقرب لبيتنا في منطقة الأعظمية. عدتُ وتسمرت أمام الشاشة. التصقت بها أكثر. أحاول رؤية المشهد، أتفحصه، وأتمعّن فيه مرة بعد أخرى. أخيراً تأكدت، وأصبح أكثر وضوحاً.

مع كل إعادة للخبر وفي كل مرة أهب واقفة كالمهرجّ المجنون، أقفز عن الكرسي، لأشير: هذا شارعنا، هذا بيتنا، هذه بوابتنا. أين بيوت جيراننا؟ عادت المحطات تتسابق إلى بث المشهد نفسه، مع التعليق نفسه: «حيّ الشماسية في الأعظمية».

الآن حفظتها جيداً. هذه العبارة التي طالما كنت أنساها، وتغيب من بالي كلما تطلّب مني تسجيلها في المكان المخصص بالعنوان في بغداد، على أوراق السفر من بيروت إلى بغداد.

إذ إن «الكَمّ» و«راغبة خاتون»، التسميتين الدارجتين بالعامية لهذا الحيّ، هو ما حفظته منذ سنوات، ويحفظه العراقيون عامة. فيما

«حيّ الشماسية» تسمية رسمية، وبريدية للحيّ نفسه، مستقاة من الاسم القديم لها حيث كان الحي يسكنه الشمّاسون والقساوسة فيما مضى.

هكذا مرّت الساعة ثقيلة، تحملتها بشقّ النفس، عدت ورفعت السماعة وطلبتهم. وجاء صوتها، صوت أمي هذه المرة واضحاً، فيه بعض الصفاء الذي أعرفه، فقد بعض قوته، وبالتأكيد لم يكن هو صوتها المعتاد.

أصبحت في كل اتصال أحاول أن أتبيّن حالتهم، نفسيتهم، قوتهم أو ضعفهم. الصوت أصبح هو الوسيلة الوحيدة للاطمئنان أو العكس. الآن أصبح الوضع أسوأ إذ إن سرد تفاصيل قد يوقع بالمحظور، سوى أن فلاناً بخير، واتصلنا بفلان، فقط لأطمئن على أشقائي وأولادهم، وأفراد العائلة الآخرين القريبين والبعيدين.

صرت في كل مرة أرفع السماعة أتردد في طلب الرقم «١٠٠»، سنترال لبنان خوفاً من أن يكون الردّ: الخطوط مقفلة أو مقطوعة. والخوف أكبر في حال كانت الخطوط مفتوحة ونجح الاتصال، وتحدثتُ معهم وهم تحت القصف، والقتل والدمار، وكل أنواع الرعب، والأغرب من ذلك كله، من دون سماع شكوى أو تذمّر، بل التسليم إلى الخالق.

تمنيت لو أسمع منهم كلمة لوم أو عتاب، ليخففوا عني تأنيب الضمير. فالندم يعصر قلبي كلما فكرت بتقاعسي وعدم قدرتي على إنقاذهم من هذا الجحيم الذي ينصبّ فوق رؤوسهم بلا رحمة.

ألوم نفسي كلما فكرت بتوسلات أشقائي أن أبحث لهم عن فرص عمل هنا في لبنان أو أي دولة شقيقة، أو، أي زاوية في بلاد «واق الواق». طوال سنوات الحصار الثلاث عشرة الماضية، أعترف أنني لم أحاول بشكل جدّي تخليصهم من هذا التدهور الحاصل منذ بوش الأب وحتى بوش الابن. أنا وزوجي لا حول لنا ولا قوة أو منصب أو واسطة، ورغم ذلك لا أدري أين أهرب من ضميري، وكيف لي أن أرتاح ويغمض لي جفن بعد اليوم.

روائحك يا البصرة

السبت ٢٩ آذار ٢٠٠٣

روائِحُك يا البصرة ما تزال تعبق في صدري. سحرُكَ يا العشّار ما يزال ماثلاً أمامي، لم يحلّ مكانه أي سحر في أيّ بلاد.

شطّكِ الميّاس يا بصرة لا يغيب، ولا يني يداعب مخيلتي رغم بعد الزمن، ومرور أكثر من عقود ثلاثة على زيارتي الوحيدة لك.

أتذكرين الأويقات الجميلة أواخر الستينيات وتلك الطفلة الشقية الآتية من بغداد؟ تلك التي عبثت بمياهك، عدَت على بساط أراضيك الخضراء، ورشقت بيديها الصغيرتين نخلاتك بحجارات صغيرة علّها تذوق طعم تمرك اللذيذ.

«شناشيلك»[١] الخشبية، الرطبة، بلونها البني المحروق، ماثلة بصورتها السرابية الجميلة، تطلّ منها سمراوات البصرة. شهرزاد عادت لتوها بأحداقها الواسعة الكحيلة، أين منها عيون المها التي خطرت بين الرصافة والجسر، وظفائرها السوداء، وكانت في حينها ما تزال تسرد حكاياتها التي تجاوزت الألف ليلة وليلة.

كنت ألمحها عبر زخارف الخشب، تخطر بثوبها الذي يضيق على صدرها الناهد، ويحبس أنفاسها، ويكبل خصرها. ثوبها، المزدانة أطرافه بالتطاريز اليدوية السمراء، وأحجار اللؤلؤ الخليجي، والياقوت والفيروز، يطلق لها العنان، وقد فرغت للتوّ من إحدى حكاياتها الليلية لشهريار، حكاية أخرى منحتها فجراً آخر من عمرها.

أبواب بيوتك المشرعة، وشبابيكها المفتوحة على مصراعيها أبداً، مثل قلوب أهلك الأحبة، تستقبل الرياح، الأضواء، الناس، كل الناس، الأهل، الجيران، الضيوف.

أحياؤك بـ «درابينها»[٢] الحميمة، تنبعث من بيوتها المتلاصقة روائح القهوة، والهيل في الدّلاء القابعة فوق الجمر، تغري المارّ أمامها، فلا يتردد في التوقف والتزوّد.

عطور نسائك، الفواحة، النفّاذة في لياليك المقمرة تغري الساهر على هجر النوم، والساري على التوقف، للتزوّد من رحيقهنّ، أو للاستماع إلى أنغام الطرب، والأصوات الرخيمة والألحان الشجية،

---

(١) الشناشيل: المشربيات. نوع من الشرفات العراقية التقليدية.

(٢) دراين: أزقّة. بالعامية العراقية جمع «دربونة»: زقاق.

ورقص السمراوات الناحلات على إيقاع «الهيوة» البصراوي الشهير، فيحار سمعك وتزوغ عيناك، إذ تختلط الأجساد، ويتواصل الليل بالنهار.

الله ما أجمل ضبابك السحري! أذكر أنني حملتُه بين يدي ورحلتُ قبل بزوغ الشمس، خفت أن تتسلل خيوطها وتبدده، فينساب بين سعفات النخيل الرشيقات، المصطفّات على مدّ البصر.

الفجر في العشّار يطلع رويداً، يأتي محملاً بعطور مياهه، وروائح الأرض الخضراء المثقلة خصباً، فينساب بين الضلوع، ينعش الروح.

روائحكِ اليوم مثقلة بالبارود، والدخان والدم. مياهك عكّرها حطام البيوت، وأشلاء الناس والنخيل. احترقت أشجارك ونخلاتك. أين «القرنة» وشجرتها الأسطورية، شجرة آدم. أين جنة عدن، الموعودة، حيث يلتقي دجلة الخير بالفرات العظيم.

سندباد البحري ألغى رحلاته إليك وأجّل مغامراته فيكِ. الحَسَنْ البصري اغتاله الغزاة الجدد، والحريري غاب بمقاماته، ولن يتكلم ابن سيرين بعد اليوم، ولا ابن الجوزي. والحسن بن الهيثم ترك نظرياته الفيزيائية وبصرياته وهندسته وفلكه وميكانيكه لمن يستخدمها في تدميرنا، وغاب حيث يرقد الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، واغتيلت شهرزاد، فسكتت عن كل الكلام المباح.

وجوه جميلة وقلوب بشعة

الخميس ٣ نيسان ٢٠٠٣

عاجزة أقف حيال هؤلاء المتمدنين، ذوي الحضارة التكنولوجية. أعجز عن تفسير ماهيتهم. المتحدثون الرقيقون، والمخططون الهادئون. ما أجمل بشراتهم البيضاء النقية، وسحناتهم السمراء الجميلة وما ألطف أحاديثهم الرقيقة، وأسلوبهم الراقي في التحدث والتعبير وإن لم يقنع!

يظهرون أمامنا ببدلات أنيقة تغلف أجسادهم اللافتة برشاقتها، نساءً ورجالاً، وكأنهم نخبة منتقاة خصيصاً للظهور على الشاشات. بل أكثر من ذلك أسبغوا أناقتهم على العسكريين، فتلفتنا ألبستهم أيضاً وعدّتهم المتكاملة، التي لا ينقصها شيء، إذ أبدع المصمم من بنات أفكاره ليكون هذا مجهزاً بكل ما يحلم العسكري به، ربما حتى الحمّام المريح.

تختلط مشاعري، حين أشاهد هؤلاء على شاشات التلفزة سواء، صقور الإدارة السياسية والعسكرية وكذلك منفذي أوامرهم العدوانية. ففي لحظة أجدهم شحذوا كل ما يعرف في العالم من «إتيكيت» وجهزوا أنفسهم جيداً للإطلالة المنطقية الرصينة، وليراهم العالم بهذا المستوى من الرقي في الكلام والتمدن، وفي لحظات أخرى يبدو سريعاً أن هذا الهدوء وهذه العقلانية ما هما إلّا غلالة شفافة تكاد لا تستر الحقيقة. بعض الابتسامات لا تلبث أن تكشر عن أنياب واللعاب يتماوج فيما بينها، يطفح بغزارة أشبه بلعاب ذئب جائع انقض على فريسته، فلا نجد أمامنا سوى وحوش تموّه أفعالها عبر الظهور بصورهم الجميلة هذه، بهندام أنيق ولسان يتقن اللعب على الكلام، في الوقت نفسه الذي تظهر على شاشات أخرى وجوههم الحقيقية وصورهم البشعة تنعكس من خلال الأشلاء، وبقايا أجساد نساء يرضعن أطفالهن، فيكشفون عن نواياهم من دون تردد أو وجل أو عيب بطرق يحاولون التمويه فيها كالحرباء، مع أن الأخيرة براء من هذه الوحشية، وفي تصريحاتهم يبدون وكأنهم ذاهبون إلى الاحتفال الأضخم والكرنفال الأهم في حياتهم.

يحتفلون بالإنجاز الأكبر الذي طالما حلموا به وخططوا له، وجهدوا من أجل تنفيذه منذ أمد بعيد، عبر سلسلة لا متناهية من الأحداث التي مهدوا بها للوصول إلى هذه النقطة، نقطة احتلال العراق. المرحلة الأخيرة من خططهم، وإن تم الأمر على جثثنا. وإن تكبدوا خسائر تعدّ مجرد أرقام بسيطة نسبة لما سيجنونه هم كدولة عظمى وإسرائيل من أرباح في المستقبل. إنها مسألة مصير بالنسبة إليهم، ومسألة كراسي بالنسبة لنا. لقد تعبت إسرائيل من النظر طويلاً إلى النفط والماء العراقيين، والأوان آن بعد أن اقتلعوا الأشواك ومهدوا السبل، وباتوا يشعرون بأنهم قاب قوسين أو أدنى من تحقيق شعارهم

الشهير: «من النيل إلى الفرات».

إنهم بالتأكيد قادمون من كواكب أخرى، عجز العلم عن اكتشافها. هذه المخلوقات الغريبة التي غزت الأرض تحتفل بهيمنتها أو قرب تحقيقها الهيمنة الكاملة عليها، عبر طقوسها الاحتفالية الضخمة التي ضمنتها كل أنواع الاختراعات التدميرية. جاءت المخلوقات بعادات غريبة عنا، وأدوات ومعدات وتجهيزات ليست من عمل بني البشر. فمن قام بكل الإنجازات لبني جنسه لا يمكن أن يخترع تكنولوجيا للتدمير أضعاف تكنولوجيا البناء.

بصمة واحدة في كل المسارح التي تتم فيها الجرائم، تدلّ على أن هذه مخلوقات غريبة. البصمة واحدة في كل بقعة يحدث فيها مجزرة، وتدمير، وإن اختلفت الأزمنة والأمكنة.

أجساد الأطفال الرضع، مثقوبة، مدماة، بجانب أمهاتهم المشويات أو المقطعات إرباً. البيوت تجثم حجارتها وركامها على رؤوس ساكنيها، جرفاً، نسفاً، أو قصفاً صاروخياً، لا فرق، المشاهد نفسها في فلسطين وأفغانستان أضافوا إليها مشاهد من العراق. ثم في رقي بالغ وربما بعض التأثر يقولون «آسفون لقتل المدنيين».

بالأمس كنت أشارك أطفالاً في مخيم مار الياس الفلسطيني في بيروت بعض فرحهم، كنت أحدّق في عيونهم متحلقين حولي، يغنون «تكرم عين الشعب الزين» للشيخ إمام، التمعت في سوادها الحالك، صور أطفال أخوتي وعائلتي في العراق، تساءلت في هلع وجزع: ترى إذا بقوا على قيد الحياة، هل أراهم في مخيم مخصص للاجئين العراقيين؟

قلب مادونا على الغزاة

الجمعة ٤ نيسان ٢٠٠٣

الفنانة مادونا، الأميركية الصنع، قررت عدم إنزال الفيديو كليب الجديد المصور لأغنية «أميريكان لايف». قالت في بيان لها: «إن الوقت غير ملائم الآن لعرضه»، احتراماً للقوات المسلحة الأميركية، التي تقوم بمهامها في العراق فتدعمها وتصلي من أجلها.

يا لرهافتها، وإحساسها العالي بالوطنية، وإيمانها العميق بالقضية، قضية احتلال قوات بلدها، بلداً عربياً مستقلاً عريقاً وكبيراً، وعضواً مؤسساً في الأمم المتحدة. إيمانها هذا بدا أنها وضعته فوق كل اعتبار، وكل الأعراف والقوانين في العالم. واحترامها ذاك لمشاعر مواطنيها العسكريين الغزاة يعلو على احترام الإنسان وحقوقه التي «فلقونا» وهم ينادون بها بمناسبة ومن دون مناسبة.

فنانة في موقع مادونا، حيث محط الأنظار والأسماع، نفترض أنها تعلم موقعها في العالم العربي، حيث لها جمهور عريض أيضاً، وليس في أميركا فحسب. تمنينا أن لا تتوقف مشاعرها عند الجندي المدجج بكل أنواع الأسلحة الفتاكة، وتتعدى صلاتها إلى الأطفال الذين يُقتلون على أيدي هؤلاء. تمنينا أن تكون مادونا إنسانة في الدرجة الأولى، لا أميركية متطرفة من الدرجة الأولى. أن تصلي للطفل المقتول لا لقاتله.

موقف مادونا من الحرب الذي تعلنه في أغنيتها تلك «أميريكان لايف» والذي يبدو أنه كان يلمّح إلى أنه ضدها، كان المفترض أن تعلنه في هذا الوقت بالذات، وليس في وقت آخر. أي في أوان العدوان حيث يكون لها التأثير الفعال في الرأي العام، إذ ما جدوى إعلانه بعد الحدث.

علمنا فيما بعد أن ضغوطاً عدة، ومن جهات مختلفة كانت سبب توقيف مادونا عرض الأغنية الفيديو كليب، مثلما حدث من قبل حين طرد صحافيون، من مواقعهم في شبكات صحافة وإعلام أميركيين، وكذلك الأمر في بريطانيا، واستقالة بعض القياديين أو إقالتهم، كل ذلك يؤكد لنا أن حرية التعبير في بلاد العم سام في خطر، أو أنها وهم كبير. اعتقدنا أن تلك الديموقراطية لا يمكن أن يقف في وجهها ضغط أو تهديد من أي سلطة، ذلك ما رسّخته في أذهاننا الأفلام والإعلام الأميركيين.

بتنا، من خلال العدوان على العراق، على يقين أكثر من أن العبارات الطنانة التي طالما أطلقوها ويطلقونها ونستمع إليها، و«نتحرقص» على عدم التنعم في ظلالها في بلداننا، تبدو اليوم

طنانة، كاذبة أو، فيها الكثير من المبالغة، وهي بعضٌ من وهم عيّشونا فيه منذ زمن طويل.

لا ندري لماذا نشعر أن منطق الإعلام الأميركي بالذات، فقد مصداقيته اليوم، وفي هذه الحرب بالذات وبات لا يختلف كثيراً في المواربة، والإخفاء واللعب على الكلام والدوران من حول المواضيع، عن منطق إعلامنا العربي. وكل ذلك كما يقولون في إطار الحرب النفسية، حيث محاولات كسر المعنويات العربية، ورفع المعنويات الأميركية.

ربما نجد لمادونا عذراً لو كانت فنانة عربية فلا نعتب عليها، لكنها في أميركا هل يعقل أنها لم ترَ صور عشرات الأطفال العراقيين المزقين، أو الذين بقوا على قيد الحياة، مبتورة أطرافهم، والمحروقين الذين سيعانون من إعاقات جسدية ونفسية لبقية حياتهم؟ أم أنها لا تشاهد سوى إعلامهم المتطرف الذي لا يظهر سوى جنودهم وكأنهم في رحلة برية للترفيه، يقرأون الكتب والمجلات الخلاعية أو يكتبون الرسائل لعائلاتهم أو يأكلون المعلبات ويلبسون أحدث البزات العسكرية المجهزة.

وفي حال كان صحيحاً أنها تعرضت للضغوط، كنا نتمنى أن تكون أكثر جرأة في موقفها طالما هي في بلد ديموقراطي. أن تقف في صف المناهضة الفعلية، الذي يشهد شبه إجماع، من فنانين كثر، كات ستيفنس وغيره، وممثلين، وكتّاب، وشعراء بالعشرات كتبوا آلاف القصائد ضد بوش والحرب والصقور. أن تكون إنسانة شفافة، ذكية في التعامل مع جمهورها الكبير، وفي اتخاذ المواقف.

تمنينا أن لا تصدق بشكل أعمى كل ما يروّج له في بلدها من شعارات تحرير وحرية للعالم، ويكون قلبها وعقلها منفتحين على أفكار أخرى وإعلام آخر، ونحن على يقين أنها ستكتشف كذبهم وانتهاكاتهم لحقوق الإنسان، واستباحتهم لشعب، كان آمناً في داره، لكنها ربما تكتشف ذلك بعد فوات الأوان حيث لا ينفع ندم ولا أغنيات ولا مواقف.

لسنا بحاجة إلى ماء ولا غذاء، نحن بحاجة إلى كرامة وبس

الإثنين ٧ نيسان ٢٠٠٣

بحرقة قالها أحد مواطني مدينة الناصرية إلى مراسل القناة الفضائية.

بصوت باكٍ، والعبرة تخنق أنفاسه، حيث تجمهر رجال وأطفال ونساء حول مجموعة الجنود المحتلين الذين يمنّون عليهم ببضعة ليترات من مياه الشرب عبر صنبور لمياه الشفة يحمله أحد الجنود، يملأ الغالونات، بعد أن كانت المياه تتدفق في البيوت قبل أيام، قبل القصف والتدمير، قبل دخول المحتل أرض السواد، وتحكمه في الناس، كان العراقيون ينعمون بماء «الفرات» و«دجلة» يسقون ويشربون من مياههما، من دون حدود، من دون غالونات.

لم يتخيلوا أن الحال سيصل بهم إلى استجدائها من الأجنبي المحتل،

وبهذا الإذلال القاتل للكرامة.

المراسل والكاميرا يخبراننا إن العطش يدفع بعض الحشود الذي لم ينل نصيباً من صنبور المحتل، إلى التوجه نحو الشواطئ الضحلة من النهر، والمناطق الأبعد من القصف والقنص والعمليات، لكي يملأ من المياه العكرة، غير المكررة لاستخدامها في التنظيف (على الأقل) وللابتعاد عن الإهانات اليومية التي يتعرض لها المواطنون في سبيل تأمين المياه لعائلاتهم.

وبالفعل رأينا المشهد القاسي على الشاشات. بعض الناس ينزلون إلى النهر يملأون بعض الحاويات الصغيرة والكبيرة، وبعضهم الآخر يستحم في المياه، بدل الاستحمام في البيت. يقول أحدهم: ماذا نفعل فالمياه مقطوعة، نحن نستحم هنا ونأخذ بعض المياه للخدمة المنزلية وأحياناً للشرب.

رجل آخر، في العقد الرابع من عمره، لم يستطع كبت دموعه، أخفى وجهه براحتيه بينما كان ينتحب، وحين حاول الهدوء، سكت، ثم بأسى، قال: من يرضى هذا الذل؟ الأجنبي ينتهك أجساد نسائنا، يكشف ثيابها بحجة التفتيش؟

هكذا يشهد العالم كله عبر الكاميرا، انتهاكات الجيوش المحتلة لخصوصيات المواطنين العراقيين والنيل من كرامتهم عبر شتى طرق الإذلال: من ضرب، وتركيع، ووضع القيود حول الأيدي، والأكياس حول الرأس، وحتى قطع المياه والكهرباء، وقصف مخازن الأغذية وكل الأماكن الحيوية وما يتعلق بالبنية التحتية. ولا يخفى على العالم قتل الجنود للمواطن المار بسيارته أو الراجل، على نقاط

التفتيش لمجرد أن المواطن لم ينفذ أوامرهم له بالوقوف، أو الاشتباه بأنه انتحاري. نحمد الله أن الصور التي نراها خير شاهد ودليل على أساليبهم، فهم مخترعوها ومنفذوها، ولن تنفع حججهم وتبريراتهم لقتل المدنيين وإذلالهم.

وشرّ البليّة ما يضحك. ضحكتُ وأنا في قمة ألمي من هذه المشاهد، وأنا أستمع إلى هؤلاء الرجال الباكين، إذ ندرَ أن رأيتُ من قبل، رجلاً، عراقياً، يبكي، حتى في أكثر الأوقات مرارة ومأساوية، ولا في أوقات وفاة أعزّ الناس إليه. ضحكت حين ذكر أحد الشباب البسطاء في الناصرية هذه القصة التي سمعناها منذ أيام وقرأنا عنها كخبر مرّ مرور الكرام على بضع محطات، قال:

«يقولون إنهم يؤمّنون لنا الغذاء، (يقصد البريطانيين أو الأميركان) هذا محض كذب. لقد مرّت بقوّاتهم أوقات صعبة جداً، وكادوا يموتون من الجوع. في القرية المجاورة، يشير بيده، كانت النسوة يخبزن الخبز في التنور للجنود ويطعمنهم التمر واللبن...».

لا أدري لم أثارت هذه القصة لدي الضحك والاستهزاء في آن؟ فهي بالتأكيد ليست قصة غريبة، لكن الغرابة أن تقع هذه القوات بكل جبروتها وآلتها الفتاكة تحت رحمة الجوع، فيما يتصدق عليهم الفقراء بل ضحاياهم.

أحدهم قال: «القنّاص قتل طفلاً ـ أشار إلى المكان ـ وحين ركضَت والدته لإخلائه قتلها اللئيم». ما تزال كلمة «اللئيم» ترن في أذني حتى اللحظة. من سيحاكم هذا القاتل؟ ومن سيعرف بجرائمه أصلاً؟. من ينصف هذا الشعب من الكذب، لا من الإبادة،

والتجويع والعطش فحسب؟ وكل ذلك باسم التحرير. جميل ومبتكر، أن يحرر السجين بقتله. كومة من عبارات الوجع، والغضب أطلقها هذا الحشد بشكل صارخ، يكاد يفتت الصخر، ختمها أحدهم بكل الإحباط واليأس الذي لا يمكن أن يتخيل إنسان عمقه وثقله: «جميع شعوب العالم تخلت عنّا».

أطفال «أُم قَصْر»

الأربعاء، ٩ نيسان ٢٠٠٣

أطفال «أم قصر» رفضوا لُعب المحتلين. هذا ما رأيناه على إحدى الفضائيات العربية. لعلّ الجنود البريطانيين يتساءلون بحنق واستغراب: كيف يرفض طفل محروم لعبة جميلة تقدم إليه في ظروف صعبة كهذه؟

أطفال لم يتعدّ عمر أكبرهم العاشرة، وقفوا يتأملون شاحنات عسكرية بريطانية. وفي دهشة مشوبة بابتسامات صفراء، شاحبة، تابعوا أفراداً من الجيش البريطاني وهم منهمكون في إفراغ حمولاتها، التي تضمنت أنواعاً من اللعاب، وبأحجام مختلفة وألوان زاهية. لعب مصنوعة من البلاستيك مثل تلك التي توضع في الحدائق، يتسلق عليها الصغار للرياضة والتسلية.

«ملاعيب» هكذا كرّر أطفال بعمر الورود اغبرّت وجوههم من الخوف والقلق والجوع والحرمان والفاقة، موجهين كلامهم للكاميرا. فيما نشاهد خلفهم هذه الألعاب التي تغري الكبير قبل الصغير لتسلقها واللعب عليها، لكنها لم تغرِ هؤلاء الأطفال رغم هلعهم البادي، وثيابهم الرثة، والحرمان الواضح على هيئاتهم.

«ملاعيب» قالوا. ثم أردف أحدهم مقترباً أكثر: ماذا نفعل بالملاعيب، نريد «أكل».

الطفل بملامحه السمراء الجميلة المتوجسة، كرر كلمة «أكل» أكثر من مرة، مستفزّاً آخر من رفاقه بدا أكبر منه بقليل، شاقاً الصفوف، صفوف الأطفال الآخرين، متوجهاً بحماسة نحو المراسل، متطلعاً مباشرة إلى عين الكاميرا، بعينين جريئتين واثقتين، مبتسماً ابتسامة جانبية تنبي عن استهزاء. أطلق عبارة أضحكت أصدقاءه المحيطين به، قال: هل نأكل هذا البلاستيك؟ مشيراً بيده إلى كومة الألعاب التي خلفه والتي كان الجنود مشغولين بإنزالها وإعادة تشكيلها.

الغريب، أن أحداً من الأطفال المتجمهرين لم يحاول الاقتراب من هذه «الملاعيب». هم راقبوها بدقة، إذ يعرفون ماهيتها وربما لعب بعضهم بالكثير من مثيلاتها في الحدائق العامة التي كانت منتشرة هنا وهناك في أرجاء العراق، أو ما يشبهها من ألعاب الحديد.

في ما يتعلق بشأن أطفال العراق، بدا أن أصحاب الدراسات والتحليلات الأميركية أو البريطانية، لا فرق، لم تطابق حساباتهم الدقيقة على الورق والكمبيوتر، حسابات البيدر أو الحقل حسب المثل الشائع. حسبوا أن الطفل هناك من الحرمان لدرجة أنه سيتقبّل

منهم هذه الهدايا من دون أن يعي أنها رشاوى ومحاولات تضليل لفكرهم الغضّ وقلبهم الرقيق. اعتقدوا أنها ستنسي الأطفال أنهم الغرباء الذين جاءوا يحتلون بلدهم، وأن الألعاب ستنسيهم معاناتهم، جوعهم وعطشهم لا في سنوات حصارهم الماضية فحسب، بل وخلال هذا العدوان الذي لن ينساه التاريخ برمته، والذي أين منه عدوان هولاكو بتقنياته البسيطة تلك التي لا تقارن بهذه الحديثة المتنوعة والهائلة. الاعتداء الذي سيبقى ماثلاً في أذهانهم لن تمحوه مآسٍ، أو أحداث ما بقوا أحياء، وستبقى مشاهد الخراب والدمار والقتل والتشويه والتنكيل والتكبيل لأوليائهم وأقربائهم، تعيش معهم، وتقض مضاجعهم طوال حياتهم.

بل كيف فكر الغزاة أن هذا الطفل، سينسى وجوههم يوماً ووحشيتهم وهم يقتحمون بيته، يقتلون والده وأقرباءه.

الصورة التي بثتها العديد من محطات التلفزة مراراً لا تبرح مخيلتي. ذاك الطفل لا يزيد عمره على الخمس سنوات يرفع يديه الطريتين الصغيرتين أمام رشاشات يشهرها الغزاة في وجهه وعائلته نساءً ورجالاً وأخوته الأطفال، يبكي هلعاً وهو يتابع كيف اقتادوا والده بعد أن قيدوا يديه وراء ظهره، فيما عدسات مصوريهم تتابع الحدث وكأنه فيلم سينمائي من أفلامهم.

الألعاب الملونة، هل تنسي الطفلة مشهد والدها المسالم القابع في منزله محتضناً إياها وإخوتها وعلى غفلة تسمع صوت اقتحامهم بوابة منزلها، مهددين إياهم ومستبيحين خصوصية البيت وحرمته. أعتقد أن بكاءها المرّ لن يجف، بل لا ندري ما سوف يترتب على هذا الهلع على الأطفال، من آثار نفسية جسيمة وطويلة الأمد.

ربما يعي هؤلاء المحتلون الآن أن هذا الطفل يدرك كثيراً من الأمور، يجهلونها هم، أو يتجاهلونها، وهو ليس بالسذاجة التي اعتقدوها. فبحكم الواقع وطول تجربته وحجم معاناته التي ولدت وتولد معه يومياً ومنذ سنوات طويلة، معاناة يومية من أنواع الذل، والقهر. هذا الطفل أصبح السلاح لعبته، كما نشاهد، والجوع صديقه ويعرف تماماً عدوّه، لا بد أن يستردّ كرامته المهدورة ولو بعد حين.

رعاع بغداد لا يمثلون أهلها

الجمعة ١١ نيسان ٢٠٠٣

بغداد بعد يوم من وقوعها الصامت، الهادئ، الحزين تعيش حالة ذهول وفقدان للذاكرة. أسوأ الأيام تمر بها بغداد والشعب العراقي بأسره. تواجد عسكري كثيف للقوات الغازية تجثم على أرض السواد، وعلى قلوب أهلنا هناك. قوات دخلت بغداد من دون خسائر فيها. من يصدق؟

قوات بكل عتادها المتطور لم تواجهها تلك المقاومة الشديدة والعنيفة التي كانوا يتوعدونهم بها كل يوم. لماذا سُلمت بغداد بهذه السهولة؟ أين هي المخططات الجهنمية التي عشنا على حلمها أكثر من عشرين يوماً مضت؟ ها هي بغداد وقد أفلتَ زمامها، تجمح بكل عنف، تفجّر بركانها، تغضب، تنفث الحمم من أعماقها،

لكنها لا تصيب سوى نفسها.

السرّاق والغوغاء يعيثون فساداً وتخريباً وسرقة ونهباً، وكل ذلك بمساعدة، بل وبتسهيل من القوات الأميركية المحتلة نفسها. شهود عيان كثر في شتى مدن العراق، أتاحت لهم بعض الفضائيات العربية فرصة التحدث والشكوى والإعراب عن ألمهم العميق لما يحدث في عراقهم الحبيب في هذه الأيام، على الرغم من أن هذه الفوضى قد تكون رد فعل طبيعياً ونتيجة بديهية تعيشها عادة المدن التي عانت حروباً طويلة، حصاراً لسنوات، ولعل مدن العراق الكبيرة، الرئيسة، مرت في الآونة الأخيرة بالصعاب نفسها التي مرت بها هي نفسها إبان احتلال الإنكليز لها وما بعده في بداية الحرب العالمية الأولى.

قبيل أيام تجمهر عدد من سكان البصرة حول كاميرا إحدى المحطات وبدأوا يشكون بحرقة حالتهم المتردية.

أحدهم كانت زوجته في حالة وضع صعبة، لم يجد لها مكاناً في المستشفى لكي تلد، بسبب عدد الجرحى الكبير والكثيف الذي لم تتسع له حتى الردهات والأرضيات.

أما السرقات، فإذا كان المحتلون هم القدوة فيها، فلا نعتب على الفقراء والمحرومين، أو المرتزقة الذين جاءوا بمعيتهم.

امرأة من البصرة في العقد الثالث، بعباءتها السوداء، اتهمت البريطانيين قائلة: «البريطانيون أنفسهم اقتحموا البنك وسرقوا العملة الصعبة، شاهدتهم بأم عيني، أليس هذا حراماً عليهم. هذه أموالنا

يسرقونها ونحن محرومون، ويقولون إنهم يأتون لنا بالغذاء. أين هذا الغذاء الذي يتحدثون عنه؟».

الكاميرات تنقل إلينا العجب. لو قصّ علينا أحدهم الأمر في حدوثة لما صدقنا. لكن ها هم حرامية بغداد بالعشرات ينقلون ما طاب لهم وعلى مهل، وعلى مرأى ومسمع الجنود المحتلين ولا من يحرك ساكناً، أليس في ذلك عجب العجاب، هل حدث هذا في أي زمان وتاريخ أو في أي مكان منذ أيام الغزوات في الجاهلية وحتى اليوم؟

والأدهى، أن أحدهم سأل باستغراب: «لماذا لا يمنعون هؤلاء السارقين؟ لماذا يقفون متسمرين أمامهم ينظرون إليهم ويبتسمون؟ هم بكل بساطة يستطيعون فرض النظام. لكن لا تفسير لوقوفهم هكذا على الحياد سوى أنهم يتقصدون الأمر».

بحسرة وآهات وغصة، سرد المحامي العراقي محمد الشيخلي للقناة نفسها، المأساة التي تعيشها بغداد هذه الأيام وسماها أسفاً «بلد العبيد» وليست «بلد الرشيد». «شيء مؤلم أن يكون الإنسان غير آمن في التنقل في بلده. بعد معاناة طويلة لا نستطيع لملمة جراحنا في ظل الفوضى العارمة. واليوم لا ترى في الشوارع سوى هؤلاء المحتلين يجولون بدباباتهم وينظرون بأعينهم إلى السارقين والمجرمين بالعشرات يدخلون المؤسسات والدوائر الرسمية، ويخرجون محملين بأثاثها ومحتوياتها، بل الأنكى من ذلك أن هؤلاء الجنود يسهّلون عمليات السلب والنهب لأولئك السراق».

هل هي صدفة تدمير مؤسسات الدولة الرسمية والوزارات وسرقتها

وإحراق ما تبقى فيها؟ هناك من يشير بأصابع الاتهام إلى أشقاء من دولة مجاورة، يقولون إنهم يأخذون بالثأر.

هل هي صدفة إفراغ المتحف العراقي من آلاف القطع الأثرية الثقيلة والثمينة خلال ساعات، لتأتي الكاميرات وتصور المتحف وقاعاته الفارغة وبقايا القطع الأثرية المهشمة في الصباح. متحف بآلاف القطع يفرغ بين ليلة وضحاها؟؟ هكذا يريدوننا تصديق الأمر بكل بساطة وسذاجة؟ وهل من عاقل يمكن أن يصدق أن الأمر نتيجة فوضى، ومجرد سرقة، أم أن الأمر، تماماً كما قرأنا في العديد من التقارير على الإنترنت، والندوات تم التخطيط له، والتدريب على القيام به، منذ أشهر قبل شنّ الحرب.

ترى ما هو مصير الألواح البابلية؟ هل سنجدها معروضة يوماً ما في إسرائيل أو أحد متاحف العالم؟

فقط وزارة النفط ـ كما عرفنا وشاهدنا ـ الوزارة الوحيدة التي تمت حمايتها من قبلهم، انظروا ها هم يطوقونها ويمنعون أياً كان من الاقتراب من بوابتها أو دخولها. لا أنسى هذا المشهد المؤلم الذي رأيته، إنهم يضحكون منا، بل يفتحون الأبواب، يقتحمون أبواب بعض المؤسسات المتينة ويقولون للناس ادخلوا، أية مهزلة أكثر من هذه؟

«بصراحة، ما يحصل لا يصدق، ربما هو نتيجة ثلاثين عاماً من سكوت العراقيين، حيث كل ما في العراق، ومن فيه كان مقيداً، وأنا رجل قانون، قال الشيخلي، ومقاتل سابق في القوات العراقية، ومن الأحرار العراقيين».

وهنا بدأ صوته يخفت إذ خنقته العَبرة، أشار بغصّة ودمعة إلى ما تناقلته كل وسائل الإعلام العربية والغربية من فوضى وسرقات وغيرها في بغداد، وقال باكياً:

«ليس ما يرونه هو المواطن العراقي الحرّ والشريف. كنا نعارض ونعبّر ونعاني قدر إمكاننا ونحن داخل البلد، لا عبر الريموت كونترول، والأموال والبذخ. ما ذنبنا إذا اخترنا أن نقف إلى جانب بلدنا في محنته والبقاء فيه. ما ذنب أمي العجوز الثمانينية وهي تكاد تفقد سمعها ورشدها من هدير الطائرات المرعب، وتتساقط من حولنا آلاف الأطنان من الصواريخ وآلات التدمير، لا ندري ما هو مصيرنا ومتى يأتي دورنا لنطمر تحت الأنقاض. وللعلم فإن مئات الجرحى لم يستطع أهاليهم أخذهم إلى المستشفيات بسبب استمرار القصف. عشرات القتلى راحوا ضحية القصف والقتال لم ترصدهم الكاميرات».

لهفي عليكِ دار السلام

السبت ١٢ نيسان ٢٠٠٣

لهفي عليك «دار السلام»، أين السلام منك؟ أين هالتك وجمالك والأمان. كيف استباحوك، هدروا دمك، وركّعوكِ، في يوم حفر عميقاً في قلوبنا، وفي قلوب العالم أجمع.

وَيلي عليكِ من مدينةٍ حملت ما لم تحمله جبال. كم مرّت بك ويلات وعذابات، أدرتِ لها ظهرك. كم من أحزان نسيتِ وقمتِ بعدها تنشدين الفرح والحياة.

أيتها المتوجة ملكةً للأحزان. أكاليلُكِ تجاوزت الشوك، لتصبح من صواريخ، وقنابل موجهة بالليزر.

اليوم يوم الأحزان. كل أحزان الأرض جَلبتِها، جُمعت فيكِ ومنك

وإليكِ. كل دموع الأرض لن تغسل عنك السواد، بكينا ونبكي دماً إذ رأيناك ونراك تئنّين تحت وطأة القصف والتنكيل، ولم يكتفوا بذلك بل نهبوا حضارتك، وشوهوا تاريخك وجمالك.

لهفي على ترابك الذهبي، وقد أضحى معفّراً بدماء أبنائك. وا حسرتي على أرضك الكانت سوداء من خصب، فأضحت سوداء من بقايا الحرائق وحطام الآلة العسكرية والبيوت والناس والأشجار.

سماؤك الزرقاء التي طالما عكست زرقة دجلة ومياهه الهادئة الصافية، هي اليوم أكثر سواداً من قلوب من دمروكِ. هواؤك النقي أصبح مثقلاً بدخان وبارود ورائحة الدم والأشلاء وغبار الدمار.

أين شواطي دجلة الخضراء. أين أشجارها ونخيلها المتزاحمة، كانت فيما مضى ترسم ظلالها على مياهه. أين «البلام»[١] و«القفف»[٢] تمخر مويجات الشط، تعبر من الرصافة إلى الكرخ وبالعكس. أين أبو نواس، والرصافي والزهاوي والجواهري ليروا ما أصاب عاصمتهم المعشوقة؟ أين جواد سليم ونصب الحرية ينوء تحت الاحتلال والتخريب؟ وكيف سيتصور الرسامون بغداد بعد اليوم، وماذا سيكتب الشعراء؟

لا تقولوا سقطت. أرجوكم، بربكم، تأنّوا حين تتحدثون عن بغداد، حين تصفونها أو تحللون مآسيها. لا تصدروا أحكامكم على الحبيبة، الغالية، فهي أمنا الحنون تحتضن أولادها جميعاً تحميهم لتتلقى الضربات من دون أن تميّز بين البار والعاقّ.

---

(١) البَلامْ: جمع بلم. مركب صغير يستخدم في الأنهار والأهوار.

(٢) القُفَفْ: جمع قُفّة. من وسائل التنقل في النهر، دائرية الشكل.

كل ما يحصل لك اليوم بغداد، هو أضغاث أحلام وكوابيس. أنت باقية، تعيشين، تعششين في ثنايا الضلوع وفي الحنايا. سيبقى أهلك أوفياء مهما أساءوا لك. ستبقى بيوتك العتيقة هناك، كما هي متآلفة، متلاصقة، يسند بعضها البعض مثل قلوب بيضاء نقية، تطلّ أسطحها على بعضها البعض، تفتح أبوابها وتشرعها لكل مارٍّ وعابر وضيف.

سنعود، نعود ونعيش صيفك الحار نهاراً البارد ليلاً، نلتحف اللحاف وننام هانئين على سطوح بيوتنا. نتمدد، كما كنا صغاراً على ظهورنا، نتأمل نجوم سمائك، نحاول أن نعدّها ثم نتوقف مخافة أن يطفح على جلدنا الفالول[٣]. أشتاق سماءك التي لا تشبه سماء أخرى، ونجومك التي لا مثيل لجمالها ولمعانها.

آه من سطوحك كم فيها من حكايات يرويها العشاق وتراشق النظرات والإشارات وكلمات الحب والهيام.

سطوحك المسكينة التي هجرها النائمون منذ سنوات بعد أن زُرع الخوف من تلصصّ أو سرقة أو قتل.

أين ملاعبك، ساحاتك، حدائقك الخضر الفسيحة، ونوافيرك، الكثيرة؟ وأين «كهرمان والأربعين حرامي»[٤]. أين «شهرزاد وشهريار»، في مجلسهما المطلّ على شارع أبي النواس يجلسان

---

(٣) الفالول: هو التأليل. نوع من الحبوب الجلدية، تبعاً لحكاية أو أسطورة تقول بأن من يعدّ النجوم، تظهر على جلده حبات التأليل.

(٤) إحدى حكايات شهرزاد. نُصب يتوسط إحدى ساحات بغداد يمثل الجارية كهرمان تصب الزيت في أربعين جرّة فخارية كبيرة يختبئ فيها «أربعين حرامي»، حسب الحكاية.

هناك على شط دجلة يتسامران تروي شهرزاد حكاياتها حتى طلوع الفجر.

آلاف الأسئلة ، وآلاف الأجوبة لا تشفي.

معاناتك مزقتنا، وانهيارك رصاصة في قلوبنا. بغداد أرجوك لا تنهاري. عودي جميلة كما كنت. انهضي، قاومي. لقد اعتدتِ الصعاب مذ نشأتِ. لا تنتظري مساعدات، أو عطاءات أو منَّة أحد. أنتِ أم العطاء والمنن، أعطيت من دون حدود، وكان هذا هو جزاؤك. لكنك أعطيتنا وأنشأتِنا، أبناءك المخلصين نحن لن نتخلى عنك، ولو تخلى العالم كله عنك.

عودي حبيبتي، عودي لنا بجمالك، بجلالك، بأنهارك، بحضارتك، بثقافتك، بفنونك، فأنت ضرورة، ولا معنى لحياتنا من دونك، فماذا أقول بعد لو بقيتِ على إحباطك هذا وضعفك؟ لطالما كنت أفخر وأجيب أنا من بغداد. من العراق العريق.

أيتها «الفاختة»(٥) ما الذي أتي بك، وكأنك غادرتِ طاقة الشباك هناك وقصدتِني من بغداد، والآن تجلسين وراء مكتبي، في بيروت، تتكئين على نافذتي، وتنوحين، «ياكوكتي، ياكوكتي». صوتك، نواحكِ يؤلمني، هل تنوحين على نوحي، أم تنوحين على بغدادي المتألمة الباكية، أم لتذكّريني بها. وهل نسيتُها لتذكّريني بها. أنت تعرفين أن لا أخبار عنهم، عن الأحباب، عن أمي، عن أخوتي، عودي إلى بغداد سلّمي لي عليهم، وائتيني منهم برسالة تطمئنني عنهم.

---

(٥) الفاختة: نوع من الحمام المغني ومعروف في العراق بترديد كلمة «ياكوكتي».

هذا جزء مما يعانيه العرب في أميركا

الإثنين ١٤ نيسان ٢٠٠٣

قريبتي اللبنانية ناديا تسكن إحدى ولايات أميركا، تربطني بها علاقة جيدة، وبيننا اتصال تلفوني دائم، لكنه انقطع طوال فترة الحرب الأميركية الأخيرة على العراق، في الوقت الذي كنت أتلقى عشرات الاتصالات من الأصدقاء والأقرباء لمواساتي وللاطمئنان على أهلي هناك.

جاءني صوت ناديا بالأمس خجولاً جامداً لا حياة فيه، ولا حرارة، خلا من حميميته المعتادة في حديثها معي، استغربت الأمر في البداية، وبعد سلام وعتاب، وجدتها بالكاد قادرة على الكلام،

والتعبير سوى بعض العموميات وحديث الأولاد وغيره، لكن الحليم من بعض الإشارات يفهم.

«لم تعد الأحوال كما كانت». هكذا ردّت حين سألتها عن أخبارهم. «...نخاف التحدث عبر التلفون، فالتلفونات مراقبة، وبخاصة نحن العرب أو من أصول عربية. والبعض يُستدعى ويخضع إلى تحقيقات طويلة، وأسئلة وأجوبة من دون مبرر، بل لمجرد اشتباه، والحصول على تفاصيل دقيقة عن كل عربي وشجرة عائلته التي لم يفكر بها هو بنفسه... نحن نعاني الأمرّين بسبب جنسيتنا الأصلية...».

هذا على الرغم من أن قريبتي ولدت في أميركا، يعني جنسيتها أميركية، إلّا أن زوجها اللبناني لم يحصل بعد على الجنسية الأميركية. قالت: «... مرات عدّة أفقنا صباحاً لنجد العلم الأميركي وضع على بابنا... المضايقات التي نتعرض لها أصبحت لا تحصى، إن في المؤسسات أو في المعاملات والدوائر الرسمية، وفي تعامل الأفراد والناس وكأننا إرهابيون».

وأكملت: «نشعر أننا متهمون في كل ما نقوم به، النظرة إلينا تغيرت في كل مكان نقصده. ونحسب ألف حساب لكل ما نفعله، حتى أولادي أصبحنا ننصحهم بعدم التحدث بالعربية كما كانوا من قبل سواء في المدرسة أو في الأماكن العامة. باختصار أصبحنا وكأننا في سجن كبير، لا نتمكن من التعبير أو إظهار مشاعرنا كعرب، وإلّا سنكون على اللائحة السوداء، الوضع مزعج إلى حدّ لا يطاق. اعذريني إن لم أتصل بك، فبصراحة لا أستطيع أن أجد الكلمات لأعبر لك فيها عن حزني وألمي لما يحدث، وإن وجدتها أخاف

مصارحتك بها على التلفون. لطالما رفعت السماعة لأتصل بك، ثم أتردد لأعود وأقفلها».

رغم ما حدث في الفترة الماضية من قمع ومحاربة لكل من عبّر عن رفضه للحرب في أميركا، من فنانين وأدباء وسياسيين وغيرهم، ورغم أن تاريخ أميركا حافل بالعنصرية والقمع، غنيّ عن التعريف، ورغم تحججهم بحادث الحادي عشر من أيلول، وكان ذلك كفيلاً بأن يجعل حديث قريبتي ذاك طبيعياً، إلّا أنني لم أشأ، أو حاولت عدم تصديق هذا الواقع الذي يعيشه العرب في بلاد الأميركان. بل إن أولادي الذين كانت لديهم رغبات عارمة في زيارة أو استكمال دراساتهم في أميركا، ولطالما كنت على خلاف دائم معهم في هذه الرغبة التي انعدمت اليوم.

ومن جهتي، عاهدت نفسي من الآن فصاعداً، على عدم «النقّ»، بل أحمد الله على أنني أعيش في لبنان، الذي أصبحت أعتبره الملاذ الوحيد والجنة التي لن أبدلها بأي بقعة في العالم.

أيام بغداد السود بين الماضي والحاضر

١٥ نيسان ٢٠٠٣

«...لقد مرت على سكان بغداد أيام سوء والناس لا يعرفون ما سيكون المصير في الأيام المقبلة. لقد اختزنوا شيئاً من المؤن المتيسرة، والميسورون من أهل المدينة ابتاعوا وخزنوا شيئاً كثيراً وجعلوه في دورهم استعداداً للطوارئ...»(*).

هذه العبارات ليست مما نسمعه في هذه الأيام أو نقرأه حول ما يجري في العراق، لكنها بعض مما قرأناه من مقالات كتبت عن الأوضاع التي سادت قبل وإبان وبعد دخول إنكلترا العراق في بداية القرن العشرين ثم مع بداية الحرب العالمية الأولى.

(*) بتصرف عن كتاب «**بغداد من ١٩٠٠ وحتى ١٩٣٤**»، للمؤرخ فخري الزبيدي.

وأنا أورد هذه الأخبار التي مر عليها أكثر من قرن، فقط لأن في تلك الأحداث طزاجة غريبة، فالتاريخ يعيد نفسه، وأجد تاريخ العراق طويلاً وحافلاً بالاحتلالات والاستعمارات المتكررة والأطماع التي لا تزول، بل وكأنها كالبركان تخمد فترة ثم تثور. وبالتالي فمن غير المستغرب استقتال طوني بلير، بالذات، في سبيل دخول العراق، فهو بالتأكيد يحلم بإعادة أمجاده وتاريخ أجداده الحافل في بلدي الثري. بل ربما يعتبر أن بلده بريطانيا، التي كانت عظمى، قبل أن تصبح تابعة لأميركا، أولى من غيرها بالعراق. بل بالأحرى، ينتظر بفارغ الصبر عودة بريطانيا الميمونة إلى قواعدها هناك والتي تركتها أو أجبرت، على مضض، قبل ما يقارب المائة عام.

حين نتصفح كتب التاريخ وأخبار الحروب وصورها، وتفاصيل الحياة إبان الأحداث، تنجلي حقائق كثيرة ما بين الأسطر والصفحات، ونجد أنفسنا مرة أخرى أمام الأطماع نفسها، وكأنه شريط فيديو يستعاد بشكل أو بآخر، وبطرق أوسع وبالطبع مع تقنيات أكثر تطوراً، في الأمكنة ذاتها والمدن العراقية نفسها، مع اختلاف الزمان، وإن مرت عقود تقارب القرن، وتبقى الأسباب ذاتها والأهداف، ومسرحيات متعددة، متجددة تقنياً وإخراجياً، لنصوص واحدة، أو فكرة واحدة مع كتّاب آخرين وممثلين بعينهم أو من يليهم هم يتناوبون الأدوار فحسب.

منذ ٢٠٠ عام، وتحديداً في العام ١٨٠٣ ميلادية، تأسست أول قنصلية بريطانية في بغداد. وكان القنصل خلافاً لكل قناصل الدول الأخرى، يتمتع بلقب «مقيم»، ومعتمد من حكومة الهند. وهذه القنصلية تتمتع بامتيازات خاصة وهامة لا تتمتع بمثلها الولايات الأخرى للأمبراطورية العظمى من حيث عدد الحراس والمسلحين

واحتفاظها بقوة مسلحة كبيرة، وسفينة حربية ترسو على نهر دجلة قبالة محل إقامة القنصل وتخضع لأوامره. وبقيت هذه الامتيازات ما يزيد على القرن.

أميركا اليوم، وبعد قرنين حلت محل بريطانيا، التي لا تحظى بالامتيازات التي تحظى بها قائدتها في الحملة على العراق.

في بداية القرن العشرين قبرت روسيا القيصرية مشروعاً هاماً يتعلق بمدّ خط سكة حديد من تركيا إلى بغداد. وكانت ملكية هذا الخط يومها دولية، ومن ثم صارت ألمانية صرفة. وتقرر مد الخط عبر ديار بكر ثم الموصل وصولاً إلى بغداد. لكن روسيا منعت تنفيذه. وما لبثت أن عادت المنافسة واشتدت بحصول قيصر ألمانيا أيام زيارته الرسمية لاسطنبول على امتياز مشروع خط جديد من قونية إلى حلب، ينعطف منها إلى نصيبين ثم الموصل فبغداد. ولم تعارض روسيا، لكن المعارضة هذه المرة كانت من الفرنسيين والإنكليز، إذ كانوا يملكون خطوطاً قصيرة بمحاذاة ساحل الأناضول، ففزعوا من الأمر. وزاد قلق الإنكليز عندما سمح بمد الخط الألماني المذكور وصولاً إلى البصرة، في العام ١٩٠٣ واعتبروا أن ذلك تهديد مباشر للمركز البريطاني القوي في الخليج العربي والذي يعتبر من وسائل الدفاع الرئيسية عن الهند.

في العام ١٩٠٨ أصبح المركز البريطاني المحلي في بغداد لا يبعث على الارتياح من ناحية الأتراك، فاحتجّت الحكومة التركية على بقاء الامتيازات البريطانية ببغداد وبضمنها وجود الحرس الهندي في دار الاعتماد وزورق البحرية الهندية في نهر دجلة.

في عام ١٩٠٩ تمّ مدّ خط سكة حديد بغداد فقدم إليها عدد من

الألمان، مما زاد المنافسة بين الأوروبيين المقيمين في بغداد، كما ازدادت الصعوبات بالنسبة للبريطانيين، عبر زيادة مقاومة نفوذهم.

وكان لفوز البريطانيين عام ١٩١٥ أثر في تقريب نار الحرب العالمية إلى بغداد. إذ قبل ذلك نشطت الحركة في بغداد كثيراً بعد أن أصبحت قاعدة للحركات العسكرية التركية على البريطانيين المتقدمين عليها، وكانت سكة بغداد ـ سامراء قد مدّت يومئذٍ فأصبحت في شغل شاغل ليل نهار لنقل الجنود والعتاد التركي كما كانت (الأكلاك) ـ المراكب الصغيرة ـ تشاهد وهي طافية على صفحة دجلة وهي تحمل من الموصل البنادق والعتاد والمدافع السهلية الخفيفة والسيارات. وتم الاستيلاء على كثير من بنايات المدينة فاتخذت مستشفيات حربية ووصلت طائفة من ممرضات جمعية الصليب الأحمر الألمانية إلى موطن الحرب ... هذا وكان الجيش البريطاني يتقدم صعداً في النهر وعلى مهل، فنشطت فاعليات الحرب نشاطاً ملموساً وتدفق على بغداد سيل من الجرحى واضطر أكثرهم إلى قضاء دور النقاهة فيها إذ لم تكن للجيش التركي وسائل نقل كافية لنقلهم إلى الشمال وتفشى وباء الجدري خلال الثمانية أشهر الأولى.

في البداية استولى البريطانيون على مدينة الكوت. إذ دُحر نور الدين بك بعد أن ترك من جنوده ١٥٠٠ أسير وأصبح الجيش التركي يرابط في العزيزية بين الكوت وبغداد. وفي تشرين الثاني/نوفمبر من ذلك العام توقف التقدم عند «سلمان باك»، منطقة «المدائن»، حيث آثار كسرى ملك الفرس، ثم كان حصار الكوت الشهير فأصبحت القيادة التركية قوية بوصول المارشال الألماني فون درغولج بنفسه واستبدال خليل باشا خلفاً لنور الدين بك، واتجهت الأنظار خلال

الأشهر الأولى من سنة ١٩١٦ إلى الكوت وفض الأمر باستسلام الجنرال البريطاني طاوسند وجنوده وضباطه البالغين ١٣٠٠٠ وكان نصيب ٧١٪ منهم الموت.

وكانت متطلبات الحرب تفرض تنفيذ مشاريع تقلب حياة بغداد الشرقية رأساً على عقب، ففتح شارع جديد واسع نوعاً ما، يمتد من باب المعظم إلى الميدان وسمي «شارع خليل باشا».

في صيف ١٩١٦ جرى تغيير في القيادة العليا عند الطرفين المتحاربين، فوصل الجنرال مود إلى العراق ليتولى أولاً قيادة القوات البريطانية المحاربة في الميدان ثم قيادة الجيش كله. ومات المارشال الألماني فون غولج بالتيفوس على حين غرّة. وبقي خليل باشا وحده القائد التركي الأعلى. تولى الجنرال مود الهجوم فجأة وزحزح الأتراك وأعيد احتلال الكوت، وبذلك أصبحت خطوط بغداد الأساسية مهددة، وغدا خليل باشا مقطوع الرجاء في إنقاذ بغداد، لذلك نقل مقرّه الحربي إليها. وبعد حصار الإنكليز للأتراك والقائد العسكري خليل باشا في بغداد لعشرة أيام احتلوها، عام ١٩١٦.

كانت ليلة العاشر من آذار/مارس تلك، صعبة في تاريخ مدينة السلام، إذ عقد خليل باشا مع قواده مؤتمراً حربياً على نهر «الخرّ» والذي سمي فيما بعد نهر «الخير» لدراسة اللحظة الحاسمة: أيدافع عن بغداد أم يتخلى عنها؟ وكان القرار: إخلاء بغداد.

تنفيذ الإخلاء حمل معه تدميراً لنقاط عسكرية، ومحطات لاسلكية ونسف مخازن عتاد وتفكيك جسر القوارب الوحيد على نهر دجلة في بغداد وتدمير عواماته على الضفة اليسرى. وهكذا رحل القائد

العثماني عند منتصف الليل ومعه شرطة المدينة وموظفوها، ونقلت جميع السجلات الرسمية، فيما أتلف البعض الآخر.

هل تلاحظون الشبه الغريب بين الأمس واليوم؟ فاليوم حين سلمت بغداد إلى الأميركان تم تدمير المؤسسات الرسمية كلها من دون أن تبقى أوراق أو سجلات تثبت حقوق الناس.

ولنكمل قراءة الماضي:

كان احتلال الإنكليز لبغداد في السادسة من صباح اليوم التالي، وقبل حلول العاشرة كان العلم البريطاني يرفرف فيها. ووصل الجنرال طومسون وتولى أمر مدينة بغداد رسمياً، استقبله الوجهاء والأجانب، ومنهم القنصل الإيراني العام والقنصل الأميركي.

قبل احتلالها تعرضت بغداد لقصف جوي حيث قامت ثلاث طائرات حربية بريطانية بإلقاء عدة قنابل أحدثت ضجة ورعباً لدى السكان. ولعل حصارها كان يعتبر من أصعب الحصارات التي شهدتها بغداد في تاريخها قبل أن يفرض عليها الحصار الأخير والأصعب منذ العام ١٩٩٠ وحتى بداية الحرب الأميركية والاحتلال الأخير.

ذلك الحصار السابق، العصيب، كاد أن لا ينساه التاريخ، لولا الحصار الأخير ولولا الوضع الحالي الذي يمر به، والذي فاق ما مضى بدرجات. بعد احتلال الإنكليز بغداد، بقيت من دون حكومة، أو سلطة أو أمن لساعات بين رحيل جيش وقدوم آخر، فاستغلّ اللصوص الأمر وسرقوا ونهبوا، حتى أرعبهم مشهد الشرطة

الإنكليزية بملابسهم الخاكية يجوبون الشوارع والطرق فألقوا بالنفائس في الشوارع وخرج الناس المسلوبون يسترجعون ما سرق منهم.

في ١٩ آذار/مارس من عام ١٩١٧ نشر بيان معدّ بأمر من الجنرال مود إلى أهالي بغداد ينص على تنظيم الحياة المدنيّة في المدينة، التي كانت تعمّها الفوضى في كل جوانبها، من بنيتها التحتية المهدمة مثل تصريف المياه والإنارة والخدمات العامة الأخرى التي أصبحت مختلّة أشدّ اختلال. والمنظر المؤلم تمثل في الدور الخرِبة ومنها ما يزال حاوياً بعض قطع الأثاث، والدكاكين المهدمة على طول الشوارع. وأقيمت لهذا الغرض هيئة مؤقتة برئاسة الحاكم العسكري العميد هوكر.

لكن بعد فترة تم الاستيلاء على المطار الألماني وجرى توسيعه، وبدأت الجرائد الحكومية تصدر باللغتين العربية والانكليزية. وتمت إصلاحات عدة، منها العمل بنظام بطاقات الخبز في بغداد لفترة طويلة بسبب شحة الحنطة، وهذه البطاقات ساهمت في تقدير عدد سكان مدينة بغداد في ذلك الوقت والذي قدِّر بما يلي:

١٨٥٠٠٠ ألف نسمة. منهم ١٢٩٨٠٠ مسلمون و٣٥٢٢٥ يهود و١٥٠٠٠ مسيحيون. أما العسكريون فكان عددهم يقارب ١٠٠٠٠ نسمة. وكان على الإنكليز لدى وصولهم بغداد، مواجهة العدوين الأكبرين: الكوليرا والطاعون، فأقاموا المستشفيات، والعديد من حملات التطعيم.

بعد ثلاثة أيام من دخوله، مات الجنرال مود بداء الكوليرا بعد رفضه

التطعيم، في الدار نفسها التي مات فيها المارشال الألماني فون درغولج، في ظروف غامضة.

ويذكر أنه إبان دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا، حدثت مجزرة راح ضحيتها قرابة العشرين ألف جندي عراقي من أبناء بغداد والكاظمية وسامراء وديالى، أرسلتهم إلى تركيا على سفوح جبال القفقاس، وهناك نال منهم البرد والثلوج ولم ينج منهم سوى مائتي شخص.

أخبار تلك النكبة توالت على بغداد الثكلى فجعلت في كل بيت عزاء ومناحة وجزعت نساؤها على أبنائها. هذه الفاجعة وغيرها تم إحصاء الضحايا فيها، لكن ماذا عن الحرب الأخيرة التي لم تنته بعد، ولم يتم فيها إحصاء ضحاياها بعد؟

مجازر على مدى التاريخ، تركت ذكريات مؤلمة ترويها الأجيال بعد الأخرى لحروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

ترى ماذا سيكتب التاريخ الحديث عن العراق في هذه المرحلة، وهل سيقرأ أحفادنا الحقيقة؟ أم حقائق مشوهة، محرّفة حسبما تقتضيه المصالح الخاصة. في كل الأحوال ستبقى تلك الحكايات والروايات التراجيدية الحقيقية وصمة عار في جبين المحتلين وأعوانهم مهما كانت هوياتهم، لن تمحى ولن تزول، وإن مرت عليها عقود أو قرون.

سطوح بغداد

٣٠ نيسان ٢٠٠٣

لحظات قبل أن تنسحب شمس بغداد، وتتوارى خلف سطوح البيوت ولا يتبقى سوى بضعة خيوط من أشعتها تحاول اختراق سعف النخيل، ومع بدء رحيل الشمس، تبدأ رحلتي اليومية في طِقس يشبه ما يقوم به الكاهن يومياً في معبده.

اليوم تطفو التفاصيل، وتلح الذكريات لا أدري لماذا؟ تمثل أمامي بقوة كلما مرت السنوات، وكلّما ألمّ بي حدث. مازلت حتى اليوم لا أستطيع تفسير عشقي ذاك، الصيفي، المتمثل بتحضير «السطح» للمنام، إذ لم أتخلّ عنه يوماً في طفولتي أو أتنازل، لغيري من أشقائي الصبيان الأربعة الذين كانوا يكرهون ممارسته في الأساس، فكان عليّ أن أغسل السطح يومياً ومن ثم أضع الفرش لسبعة أسرّة.

لطالما أحببت الصيف وكرهت الشتاء. الصيف يعني الحرية والحركة والشتاء يعني البرد والكآبة والانزواء. هكذا منذ صغري كنت أنتظر حلول الصيف بفارغ الصبر. مع نهاية شهر نيسان/أبريل يبدأ صيفنا البغدادي الجميل، صحيح أنه يلتهب رويداً مع بداية شهر أيار/مايو ليصل أشدّه في تموز/يوليو الذي «ينشّف الماء بالكوز»، مروراً بآب/أغسطس «اللهّاب»، ومع حلول أيلول/سبتمبر ينتهي القيظ والقيلولة، فيقولون «سيروا ولا تقيلون»، حينها تبدأ الليالي بالبرودة الناعمة، وأخيراً لن ينفع معها لحاف أو أي دثار ليبدأ الناس في النزول إلى غرف نومهم تباعاً.

يبدأ وقت المتعة والتسلية حين أنتهي من واجباتي المدرسية وبعض البيتية التي أتمّها على مضض، فلطالما كرهت أشغال البيت. أتسلق درجات السلم في خطوات حثيثة، طابق، طابقان، وأصبح أمام الباب الحديدي، أعالج المزلاج قليلاً لأطأ أرض السطح. أوّاه، لهيب الأرض يلسع باطن قدميّ حين أنسى ارتداء خفين، ففي الصيف يحلو لي مثل كل الأطفال هناك: التنقل في غرف البيت حافية، أو نفترش الأرض العارية، فهل جرّب أحدكم متعة الإحساس ببرودة الأرض في صيف قائظ؟

رشاش المياه الطويل جاهز، محشور هناك في فتحة الصنبور الخاصة بالسطح، ربما منذ بناء البيت، في الستينيات. أفتح المياه على وسعها، ينساب الماء، أبدأ برش الأرض ولا بأس إذا بلّل ثيابي إذ أحس ببرودة لذيذة تتسلل كالخدر إلى جسدي وبعدها أسرح مع ذاك الجمال الذي أحاول تخيله الآن.

ها هي بغداد تمتد على مدّ البصر، أحاول الوصول إلى نهاياتها، أمدّ

نظري نحو الأفق البعيد من دون أن أجد حدودها. بل يتهيأ لي دائما أن سعف النخيل البعيد ، الكثيف هو حدود بغداد.

غابة من السطوح، غابة من «الأرْيَلات»[١]. غابة من الثياب الملونة تتوسد الحبال تصطلي بشمس بغداد، سرب حمام هنا وآخر هناك، تحلق حسب إشارة من صاحبها أو صفيره الخاص، تلفّ وتدور مراراً حوله قبل أن تعود إلى بيتها على السطح. كل سرب يعود إلى بيته، لكن من سوء حظه إن ضل أحدها طريقه فينضم إلى سرب آخر. وهذا ما حدث، ويحدث اليوم للعراقيين.

النخيل يتخلل البيوت، يزاحمها، يفرض نفسه على أشجار أخرى في بساتين العراق عموماً وحدائق بغداد خصوصاً. هكذا هي سطوحنا تكاد لا تحصى المشاهد فيها وعبرها، مهما حاولت ذلك.

إنه وقت التأمل ، فليس أجمل من متابعة قرص الشمس النازل رويداً وكأنه بمتناول يدك، في لوحة مبدعة، متغيرة الألوان، لا تلبث أن تزول ويحل الظلام.

لكن التأمل لا يدوم، إذ بانتظاري مهمة تتعلق بنوم العائلة إن لم أنجزها لن يكون النوم بارداً، هانئاً، والويل والثبور حينها.

الآن أكمل المهمة. بعد أن رششت السطح بالمياه، ها هو البخار يتصاعد، ينطلق الغبار وأشم رائحة يباس الأرض معه، تجف الأرض

---

(١) جمع «أريَل» بالعامية العراقية. وأصلها إنكليزية «Erial». يقابلها باللبنانية «آنتين» التلفزيون الفرنسية الأصل.

سريعاً من شدة الحرارة، ولا بد من إعادة سكب المزيد من المياه حتى يتوقف البخار. ويزول الغبار وتبترد الأرض. والآن صار بالإمكان وضع الأفرشة المحشوة بالقطن على أسرة الحديد التي لا تغادر مكانها صيفاً وشتاءً، إلّا لزاوية أخرى أو مكان آخر حسب رغبة كل منا.

هل بإمكاني وصف هذه المهمة الصعبة، الممتعة معاً. هل تتخيلون إعداد سبعة أسرّة للمنام بالنسبة لطفلة؟

بعد انتهاء عملية الرش والتبريد للأرض، عليّ الآن حمل كل «دوشك»[٢] من «البيتونة»[٣] ووضعه على سرير الحديد، ثم وضع شرشف نظيف فوقه، ثم وضع الوسائد وشراشف للغطاء وربما لحاف إذا كانت الليلة باردة.

منذ طفولتي والنوم عدوي ولما يزل. لم يحبني يوماً، رغم أني لم أسئ إليه.. في تلك الأمسيات الصيفية كان للسهر طعم مختلف وأصدقاء غير أصدقاء الصباح كالجيران وأصدقاء الحي والمسبح.

القمر والنجوم هم أصدقاء الليل. كنت أجد فيهم التسلية إذ أخذت من والدي رحمه الله حب معرفة أشكال المجرات وأبراجها وأسماء النجوم والكواكب ومواسم ظهورها في السماء وأوقات رحيلها،

---

(٢) دوشك: الفراش الذي يوضع فوق السرير عادة للنوم ويكون ثقيلاً أحياناً على طفلة.

(٣) البيتونة: مكان لوضع الفراش بجوار باب السطح في بيوت بغداد. حيث ترصّ هذه الأفرشة القطنية فوق بعضها البعض قبل النزول صباحاً إلى البيت. ومن ثم تجلب من هناك في الغروب وتفرش قبل النوم بساعات وهكذا.

فكنت أقضي معظم الليل وأنا أبحث عن برج العقرب، وأرسم نجومه، هذا ذَنَب العقرب وتلك يداها، وهذه الثريا ونجومها السبعة الصغار تتلألأ مثل عنقود العنب، وهذا النجم القطبي، إذن هذا اتجاه الشمال. وهذا كوكب الزهرة الجميل، المتباهي بتوهجه وكبره، وربما أعثر أحياناً على كوكب المريخ، نجمة سُهيل حديث آخر، ينطلق في أولى لحظات الصباح حين تغيب الكواكب الأخرى فهو لا يقبل المنافسة من أحد، وهكذا كانت صديقتي السماء هي أكثر ما افتقدت في لبنان. فكلما رأيت السماء ونجومها، وكأني نلت كل المنى وكأني عدت إلى سماء بغداد رفيقة ليالي الصيف الجميلة.

لكن أين هي ليالي الصيف البغدادية؟ يبدو أنها رحلت أيضاً مع الراحلين، ومع كل شيء جميل غادر العراق. فأهلي اليوم توقفوا عن النوم على السطوح خشية السطو على البيوت من قبل اللصوص. إذ أصبح كل شخص هناك يتحصن في غرفته، يقفل الباب بالمفتاح، لا باب البيت فحسب.

الأمور في العراق انقلبت مثل ساعة الرمل، رأساً على عقب. كنا ننام في السطوح أو في حديقة المنزل والأبواب مشرعة، مفتوحة بالكامل، من دون حتى أن تكون مواربة والسيارات في الداخل والخارج مفتوحة هي الأخرى، ولا أذكر أننا سُرقنا مرة. اليوم بات الكحل يُسرق من العيون، والطفل من بيته والموظف من عمله، إن وجد عملاً. والأهم، أن السطوح هجرت تماماً وباتت تبكي الأحباء.

العالم تخلّى عنّا

أول أيار ٢٠٠٣

حسب أحد البسطاء في مدينة البصرة، قال: «العالم تخلّى عنّا». جاءت كلمته أمس عفوية، مثل كل يوم في أخبار إحدى القنوات الفضائية. أعادتني لبرهة قصيرة إلى سنوات خلت. أيام كانت يد العراق ممدودة للجميع وخيراته تعم القاصي والداني.

من الذكريات القريبة التي ترتسم أمامي ولا تزول من ذاكرتي، مشهد الطريق الطويل بين بغداد وعمّان. كان الإسفلت مغطى دائماً بطبقة كثيفة من البترول، إذ كنا نشاهد عشرات الشاحنات التي لا تحصى تعبر مثل السيارات العابرة، تزاحمها في طريقها من بغداد إلى عمّان.

نعم العالم كان يعلم، لكننا كنا نرى البترول العراقي على مدى

سنوات الحصار كان يذهب إلى الأردن ونعرف أنه مباع أو مباح بأسعار رمزية أقرب إلى «البلاش». كنا نعلم (والمعلومة على ذمة الرواة) بأن مطار «علياء الدولي» في عمّان بني من أموال العراق.

ولطالما سمعنا عن الهدايا التي نعم بها الكثير من الفنانين، وأخيراً حكايات براميل البترول التي كانت تمنح بمثابة هدية، وما تزال قضية «كوبونات» النفط قيد التحقيقات.

أذكر أننا في سنوات الحرب اللبنانية كنا نجد أنواعاً من الأغذية والمؤن في الأسواق، جاءت كمساعدات من العراق إلى الشعب اللبناني.

وأعتقد أن اللبنانيين أو غالبيتهم يتذكرون بعض أنواع التمور كانت تملأ الأسواق. صحيح كان المفترض أن توزع هذه كمساعدات على المحتاجين في المناطق المتحاربة والفقيرة، إلّا أن تجار الحروب أبوا إلّا أن يتاجروا بها بيعاً وشراء إلى جانب أنواع من الأرز والدبس وغيرها.

والصحيح أيضاً أن يد (الخير) العراقية لا يمكن أن ننساها في لبنان، إذ كان ختام الحرب اللبنانية، مسكها، كما قيل إن صدام حسين دعم قوات الجنرال ميشال عون عام ١٩٨٩، براجمات للصواريخ (يقال إن كل راجمة تطلق أربعين صاروخاً في الدقيقة)، فكان أن «درزت» الراجمات أحياءنا في المنطقة الغربية من بيروت، بعشرات الصواريخ مثلما تدرز ماكينة الخياطة الكهربائية قطعة قماش، فلم تسلم منها بناية أو بشر، لدرجة أننا اضطررنا إلى مغادرة بيتنا في منطقة الظريف هرباً من راجمات الجنرال، وصواريخه التي كانت

تريد تحرير لبنان بأي ثمن، في حين لم نغادر البيت في أي وقت حتى إبان احتلال إسرائيل لبيروت.

والحقيقة تقال: إن صدام حسين ونظامه لطالما كان يضع الأخوة العرب في الأولوية، حتى على العراقي نفسه، ولهم كل الامتيازات، حتى في منحه السلاح لهم.

هنا أتذكر حكاية صديقٍ رواها مرة لمجموعة كنت من ضمنها في زيارة له، قال:

«لا أنسى حين شاركتُ مرة في مناقصة تجارية طرحتها الدولة العراقية، لأحد مشاريعها. شاركت فيها مؤسسات من أنحاء العالم، وبعد أشهر رست المناقصة بحضور أصحاب الشركات، على إحدى الشركات الأجنبية. عدت إلى لبنان، وبعد أيام تلقيت اتصالاً من بغداد يقول إن المناقصة رست على شركتي.

تعجبت، قال، وقلت للمتصل: لكنها رست على الشركة الفلانية، وكنت حاضراً يومها، ردّ المتصل: يا أخي هؤلاء أجانب، وأنت عربي، ثم إن الفارق بسيط بين موازنة مشروعك المقترحة وموازنة الشركة الأجنبية، بصراحة نحن فضلناكم عليها، لأن ذلك يعني إن زيتنا سيبقى في طحيننا، وفلوسنا ستكون في جيبنا لأنها لن تذهب لأجنبي. يقول نزيه: لن أنسى هذه الحادثة ما حييت.

هذا بالفعل ما كنا نلمسه، والأمر معروف وليس من ابتكاري، بل كان يحزّ في نفس العراقي الذي يقول: «بلدنا غني، ثرواته وخيراته للجميع ما عدانا».

طوال تاريخ العراق، نَدَر أن نال العراقي نصيبه من ثروات بلده،

كان قانعاً بنصيبه الذي يكفيه وعائلته، فيما كان الشقيق العربي الذي تسنح له الظروف بالدخول إلى العراق وإقامة مشاريع مع الدولة ينال أكثر من نصيبه. والكثير أثرى من صفقات مع العراق. واليوم يتحسر العراقي ويقول: العالم كله تخلى عنا.

بالأمس سمعت أن المنظمات الإنسانية بدأت تلملم أمتعتها استعداداً للمغادرة، وبخاصة بعد أن توقف القصف.

ها هي تتخلى الواحدة تلو الأخرى عن العراقيين في محنتهم هذه، أولها «الصليب الأحمر الدولي»، إذ أعلن من عمان تجميد عمليات الإغاثة في العراق وبخاصة في بغداد، بسبب الفوضى الحالية.

تساءلنا نحن الذين نسمع بأخبار المآسي، بغضب: متى إذن يكون للصليب الأحمر أو غيره من دور إن لم يكن الآن بالذات، وما حاجة الناس إليهم في أوقات السلم والأمان؟!

لدى غالبية العراقيين قناعة اليوم بأن العراق ابتلي بحروب تمت برمجتها منذ أن بدأ العراق يقترب من ذروة قوته، وكانت النتيجة أن جيء بصدام إلى الحكم، بيد الأميركان أنفسهم، كل ذلك من أجل الوصول إلى هذه النقطة، تماماً، نقطة الصفر.

نقطة الدمار والتلاشي واللاشيء، والفراغ وكأن الحياة بدأت هناك للتوّ. هذا إن تركوه يبدأ. نعم هي بالضبط نقطة الصفر.

العراق ببوادر قوته تلك أخاف الكل. بلد بكل المقومات والهبات التي وهبها الله إياه، لا البترول فحسب، بل من ثروات معدنية

ومائية وعقول بشرية، كل هذا وقف الجميع حياله بخوف وقلق وغيرة وحسد وطمع، ووو.

فتحت الأعين على وسعها عليه، مشدوهة، مندهشة بكل الخير المتدفق فيه أنهاراً، بدأوا يفكرون ما العمل؟ ما السبيل إلى الاستيلاء على عطايا الله؟

وجلس المخططون الجهنميون، ممن سال لعابهم، يخططون، والجيران لا من سمع ولا من شاف. حلفاؤه، نالوا نصيبهم من التفتيت والانكسار، والضعف، وهكذا وكما قال بوش مرة: الخيرات ليست ملك أصحاب الأرض.

بدأت بوادر الثروة والترف تظهر في العراق منذ أوائل السبعينيات، وتصاعدت بشكل مضطرد، حتى أواخرها حين استلم صدام حسين الحكم.

تمتع العراق بميزات لم يحظ بها غيره من دول العالم الثالث. والحق يقال، وأنا لم أكن يوماً، ولا أحد من أفراد أسرتي، من الحزبيين أو المحظيين لدى الدولة، بل العكس كنا مثل الملايين القابعين في بيوتهم بصمت. والدي الشاعر الذي كانت له محطات في الشعر وصَولات وموقع مرموق بين الشعراء بين الأربعينيات والستينيات، آثر الانزواء في البيت. يؤلف الكتب الأدبية، إذ عرف عنه عشقه للمتنبي. توقف تقريباً عن كتابة الشعر وعلق عضويته في اتحاد الأدباء والكتّاب منذ السبعينيات كي لا يضطر إلى كتابة قصائد أو شعر في غير ما يريد أو من يريد.

ورغم مساوئ الحكم التي لم تكن قد بلغت الذروة حينذاك، أو أننا ـ المواطنين العاديين ربما لم نكن نسمع إلّا ببعض الشائعات أو الأقاويل هنا وهناك ومن فترة لأخرى، إذ كنا نمشي في ظل الحائط كما يقال، لكي نكون بمنأى عن أي احتكاك بالسلطة، إلّا أنني كما أسلفت، أقول كلمة الحق لأبرئ ذمتي أمام الله.

فالجميع يعلم أن التعليم في العراق مجاني، لا أدري منذ متى، لكنني أنا وأخوتي وكل الشعب العراقي مذ كنت طفلة تعلمنا من دون أن ندفع فلساً واحداً. وكانت مدارس الدولة ذات مستوى يوازي مستوى المدارس الخاصة بل تتغلب عليها في فترات سابقة ما قبل الانهيار. أما الطبابة فكانت مجانية أيضاً، ولطالما كانت العمليات الجراحية أضمن وأجود وآمن في مستشفيات الدولة مثل «مدينة الطب» وغيرها أكثر منها في المستشفيات الخاصة. وماذا يطلب المواطن أكثر من تأمين أمرين أساسيين في حياة الإنسان: التعليم والطب؟

حين تخرجت عام ١٩٨٠ في كلية الإدارة والاقتصاد من الجامعة المستنصرية، فرع إدارة الأعمال، ذهبت وكل المتخرجين من دفعتي إلى لوائح علقت في الجامعة، تحتوي على اسم كل متخرج والوظيفة التي تم تعيينه فيها، في إحدى دوائر الدولة. لم نكن نبحث عن وظيفة بل نملأ استمارات بعد نيل الشهادة مكتوب عليها اختيارات الوظائف.

هناك في الجامعة كتب على اللائحة اسمي ومكان وظيفتي في قسم تدقيق الحسابات في وزارة التخطيط. لكني بالطبع كنت قد عقدت قراني على سعيد، اللبناني الذي كان زميلي لأربع سنوات في

الجامعة المستنصرية في بغداد، والذي كان سبقني إلى بيروت لكي يبدأ هناك البحث عن وظيفة له وأخرى لي، بعد أن أكون قد سحبت كامل أوراقي من الجامعة، وبذلك قدمت استقالتي فوراً قبل أن أباشر بالعمل.

من خلال هذه الأمثلة هل بإمكان أحد أن يتخيل، مدى قوة هذا البلد التي كان من الممكن أن يصل إليها اليوم لو لم تحلّ به كل اللعنات والكوارث تلك خلال ربع قرن مضى؟

هل تتخيلون بلداً عربياً في عام ١٩٨٠، وصل إلى مرحلة انعدام البطالة فيه، بل الأمر كان العكس تماماً، فنتيجة الفورة الصناعية، وتأسيس الدولة للمصانع وشركات لا تحصى كانت حاجة الدولة ملحة إلى كوادر شبابية، فكان أن شجعت الدولة الشباب على الدراسة في المعاهد التقنية العلمية والإدارية التي أسستها بموازاة الدراسات الجامعية، تمنح شهادات بعد سنتين دراسيتين تعقبان الدراسة الثانوية حيث إن المتخرج لا يلبث أن يجد العمل الملائم لشهادته من دون بحث مضن بل من خلال الدولة وتوجيهها المباشر. بدأت تلك الكوادر البشرية الوسطية، التنفيذية من خريجي المعاهد تملأ هذه المصانع، والشركات والمعامل وغيرها.

كانت البرمجة الإلكترونية عبر الكمبيوتر معتمَدَة في حقول عدة ومجالات كثيرة، ومنها تعيين الشباب في وظائف ملائمة، فأتاحت البرمجة توزيع الفرص على الشباب بالتساوي وحسب حاجات المؤسسات!

أليس هذا ما يحتاج إليه المواطن بالضبط؟ وهل هناك دولة عربية

توظف شبابها المتخرجين في اليوم الثاني لتسلم شهاداتهم؟

هل هناك دولة عربية استطاعت التوصل إلى محو أمية شبه كامل كما حدث في العراق؟

هل من دولة عربية تعلّم أبناءها، وأبناء جيرانها مجاناً من الروضة وحتى آخر سنة جامعية وصولاً إلى الدراسات العليا؟

هل من دولة عربية اليوم تطبب مواطنيها سواسية، مجاناً وتصرف الدواء لهم بقيمة رمزية؟

هل من دولة عربية تساهم في مصروف مواطنيها عبر ما يسمى البطاقة التموينية، التي تتضمن أساسيات الحياة اليومية، من طحين وزيت وأرز وعدس وفاصوليا وصابون وغيرها، رغم التحفظات على هذه التموينات البائسة والتي قد لا تكفي الشهر كله للبعض، والبعض الآخر من غير المقتدر يتقشف لكي تكفيه حتى نهاية الشهر.

أليس هذا ما يحلم به أي مواطن في أي بقعة من العالم؟

أيضاً التاريخ يعيد نفسه

٥ أيار ٢٠٠٣

من المذهل كيف أن التاريخ يعود ويكرر نفسه؟

مرة بعد أخرى أجد نفسي أمام أحداث وكأنها تجترّ أو تستعاد بعد مرور فترة من الزمن، فنعود إلى تصفح بعض أحداث التاريخ وخاصة ذلك المتعلق بالأطماع الأجنبية والاحتلالات المتكررة، التي تعرض لها العراق مراراً فما أشبه تلك الأيام باليوم!

سبق وقرأنا ما مرّ به العراق إبان الاحتلال الإنكليزي له قبل قرنين ثم قبل قرن مضى.

«تاريخ مقدرات العراق السياسية» كتاب فيه أحداث لو لم تكن مؤرخة بتواريخ وأسماء لظننت أنها حدثت وتحدث تواً. الأطماع نفسها. وهو يتحدث عن الاحتلال البريطاني أيضاً.

يقول في إحدى صفحاته: حين دخلت الجيوش البريطانية بغداد عام ١٩١٧ ومختلف الأقضية، نشر الجنرال ستانلي مود قائد القوات الإنكليزية منشوراً موجهاً إلى أهالي بغداد تعالوا نقرأ بعض ما ورد فيه ونقارن، هل من فارق كبير بين السلف والخلف:

«يا أهالي ولاية بغداد:

إنني باسم جلالة ملكي المعظم واسم شعوبه التي يحكم عليها، أوجه إليكم الخطاب(*) الآتي:

«إن الغرض من معاركنا الحربية دحر العدو وإخراجه من هذه الأصقاع. فإتماماً لهذه المهمة وجهت إلي السلطة العليا المطلقة على جميع الأطراف التي تتحارب فيها جنودنا. إلّا أن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء بل بمنزلة محررين. (لقد اختلفت التعابير هنا لكن المعنى واحد. هنا يريد البريطانيون إخراج الأتراك لكي يستولوا على العراق. وهذا ما بقيت تردده أميركا لسنوات، إذ كانت تريد دحر نظام صدام لكي تحرر العراق، مع اختلاف طفيف جداً وهو أن بريطانيا اليوم تابعة لأميركا).

«فقد أخضع مواطنكم من أيام هولاكو لمظالم الغرباء فتخربت قصوركم وتجردت حدائقكم وأنّت أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق. لقد سيق أبناؤكم إلى حروب لم تنشدوها وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها في أصقاع شاسعة. تكلم الأتراك

(*) صدر هذا الخطاب عن مركز رئاسة الجيش البريطاني ببغداد في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣٣٥ هجرية، الموافق ١٩ مارس سنة ١٩١٧.

منذ أيام مدحت باشا عن الإصلاح ومع ذلك أليس دثور اليوم وقفوره برهاناً على بطلان هذه المواعيد».

ألا تعتقدون أن الأميركان استعاروا من روحية هذه العبارات وكرروها مراراً وتكراراً لسنوات حتى بات بعض العراقيين وبخاصة الهاربين من جور النظام إلى بريطانيا وأميركا، باتوا يحلمون مع كلمات معسولة بعراق ديموقراطي، بلداً للحرية، أو بالأحرى حلموا بتوظيف أموالهم ورؤوسها في بلدهم، فجاؤوا إليه على ظهور الدبابات وبالطوافات الأميركية ظناً أن الناس سيبايعونهم بالسهولة التي تخيلوها. لكن الرياح جرت بما لم تشته سفنهم.

فها هم يذوقون ما اقترفت أيديهم، هم شرعوا أبواب العراق للمخربين والإرهابيين، حتى امتلأت بهم الشوارع وبات مسرحاً لهم يعيثون به خراباً وقتلاً وفوضى عارمة. والغريب أنهم ما يزالون يدّعون بأنهم جلبوا الحرية والديموقراطية.

ويكمل الجنرال مود خطابه: «إنها ليست أمنية جلالة ملكي المعظم فقط وأمنية شعوبه، بل إنها أيضاً أمنية الأمم العظمى المتحالفة معها حكومة جلالته أن تفلحوا كما في السابق وقد كانت أراضيكم مخصبة وكان العالم يتغذى بألبان آداب أجدادكم وعلومهم وحرفهم وقت كانت بغداد إحدى غرائب الدنيا».

هذه هي الوعود التي يطلقها كل محتل للشعب إذ يصور له بأن الحياة ستكون الجنة بعينها حين يأتي ويدحر العدو: «سوف تفلحون كما في السابق»!

«لقد ارتبط قومكم بأيالات جلالة ملكي المعظم بعروة المصالح الوثقى فقد تعاطى تجار بغداد وتجار بريطانيا العظمى بعضها مع بعض مدة مئتي سنة متبادلين المنفعة والصداقة».

هذا صحيح تماماً، فلطالما كان التجار ـ سواء العراقيون والبريطانيون ـ على صداقة دائمة مع بعضهم البعض ومصالحهم مشتركة بحيث اشتركوا معاً أخيراً في وضع خطط الحرب على العراق، من دون أدنى اهتمام بوضع خطط للحفاظ على الأمن وسلامة المؤسسات، فالعكس هو في صالحهم، تدمير العراق يعني فائدة لهم لتشغيل شركاتهم في كل الميادين، واستثمار أموالهم، فالعراق هو السوق الكبير والأهم لاقتصاد الولايات المتحدة الوشيك الانهيار.

ويكمل مود خطابه وحججه: «أما الألمان والأتراك الذين نهبوكم أنتم وذويكم فإنهم اتخذوا بغداد مدة عشرين سنة مركز قوة يهجمون منه على نفوذ البريطانيين وحلفائهم في بلاد إيران والأقطار العربية. فعلى ذلك لم تتمالك الحكومة البريطانية من البقاء ضاربة الصفح عما يحدث في وطنكم حاضراً أو مستقبلاً.».

وبالفعل لم يتمالك البريطانيون أعصابهم رغم برودتهم المعروفة، إذ يرون خيرات العراق تذهب إلى الأتراك والألمان. فلم يقفوا مكتوفي الأيدي من دون المجازفة بالقليل للاستحواذ على الكثير. وهذا أيضاً ما جعل الأميركان يفقدون الصبر بعد سنوات وهم يرون خيرات العراق يشفطها صدام ونظامه، فكانت الحجة تخليص «الشعب»، إذ رقّت قلوبهم وهم يرون العراقي فقيراً محاصراً محروماً مظلوماً، قتيلاً، فكانت الوعود بعراق حرّ، ديموقراطي، متطور، هادئ خال من الحروب، يتمتع بخيراته وبالرفاهية ووو.. وكل كلامهم المعسول

هذا زرع أملاً لدى غريق أراد أن يتعلق بقشة، صدقوا هذه الوعود وآمنوا بأن الأحلام ستتحقق، وسوف يأتي اليسر بعد عسر، وبات غالبية العراقيين يدعون إلى الله، ويتضرعون كي يأتي الأميركان وينقذوهم وينهون معاناتهم.

ها هم اليوم يعيشون صدمة واقع أكثر ظلمة ومأساوية من ذاك، واقع أسود تماماً عكس ذلك الحلم الوردي. لكن السؤال لماذا لم يقرأ العراقيون التاريخ؟ أو ربما هم عرفوه لكنهم لم يتعظوا أو يعتبروا منه، أو أن اليأس جعلهم يستنجدون بالشيطان من أجل الخلاص.

ويكمل مود: «إذ إنه قياماً بواجب مصلحة الشعوب البريطانية المجازفة في وقوع ما عمله الأتراك والجرمن ببغداد أثناء الحرب مرة ثانية. ولكنكم يا أهالي بغداد يا من حرفكم بالتجارة، وتأمينكم من الظلم والغزو أمر يستوجب أدق اهتمام الحكومة البريطانية، وأن تتحقق ما تطمح إليه نفوس فلاسفتكم وكتابكم مرة أخرى ولسوف يسعد أهالي بغداد حالهم ويتمتعون بالغنى المالي المادي بفضل نظامات توافق قوانينهم المقدسة وأطماعهم القومية والفكرية.

«إن مأمول بريطانية العظمى والأمنية أمنيتها، بل هي مأمول الأمم المتحالفة معها أن تسمو الأمة العربية مرة أخرى عظمة وصيتاً وأن تسعى كتلة واحدة وراء هذه الغاية بالاتحاد والوئام».

لكن أي اتحاد وأي وئام؟ ها هي الأمة العربية متفرقة دولاً ضعيفة وأنظمة استبدادية تعاقب شعوبها، دولة تغزو دولة ودولة ضد أخرى، وليس من دولة عربية على وئام حتى مع جارتها..

وقال: «يا أهالي بغداد تذكروا إنكم تألمتم مدة ٢٦ جيلاً».

لكن كم جيلاً عاش الألم بعد هذا الخطاب؟ وكم جيلاً بعد سيعاني الألم مضاعفاً وعنفاً أبشع؟

وختم القائد الإنكليزي: «فبناء عليه إني مأمور بدعوتكم بواسطة أشرافكم والمتقدمين فيكم سناً وممثليكم إلى الاشتراك في إدارة مصالحكم الملكية لمعاضدة ممثلي بريطانيا السياسيين المرافقين للجيش كي تنضموا مع ذوي قرباكم شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً في تحقيق أطماعكم القومية».

أيام في النجف

١٠ أيار ٢٠٠٣

بيت جدي الملاّ[١] محيي الخفاجي في النجف شهدت فيه واحدة من ذكرياتي غير السعيدة، ولي فيه الكثير من المحطات. بابه الخشبي ذو الدفتين الضيقتين يطل على الزقاق الضيق مباشرة بعد درجة واحدة على الطريق، والدخول منه يؤدي مباشرة إلى حَوْش[٢] رحب، تتجمع فيه العائلة على الإفطار والغداء والعشاء، وهو للّعب أيضاً وتحيط به ثلاث غرف للنوم.

سقف الحوش تتوسطه فتحة بمساحة متر مربع، هي بمثابة شبّاك وفتحة تهوئة للبيت وللإضاءة في النهار وبالطبع تتخللها، أسياخ

---

(١) الملاّ: المعلم في الكتّاب.

(٢) الحوش: فناء مفتوح يتوسط الدار، وبخاصة الدور العربية القديمة.

حديدية متقاطعة متينة طولاً وعرضاً بشكل مربعات بحيث تسمح للضوء والهواء بالتسرب من خلالها إلى حوش البيت. كنا نحن الأطفال نتمتع باللعب فوقها بشكل عادي إذ إنها كانت تتوسط أرضية سطح المنزل الذي هو بمثابة الملعب الكبير لنا. فيما نطلّ من خلالها أحياناً لنرى ما في البيت تحتنا أو من فيه أو لننادي بعضنا أو لطلب إمدادات الأكل واللعب وغيرها من الحاجات توفيراً للصعود والنزول المتكرر عبر الدرج.

وكان الحوش يشهد مجالس الأفراح والأتراح معاً. التعازي في عاشوراء للنساء أحياناً وللرجال أحياناً أخرى. وهكذا كانت فتحة سقف الحوش تلعب دوراً هاماً في التلصص على أولئك الكبار والنظر إليهم وتبادل الضحك والنكات على ما يجري في الأسفل.

أذكر احتفالاً لمناسبة طهور جماعي لثلاثة من أبناء عمي علي، أكبرهم كان في عمري والثاني أصغر بسنتين والثالث أصغر من الثاني بسنتين، واليوم أذكر بعضاً من تلك الجلبة والتحركات وزحام الناس الداخلين والخارجين الأقرباء والغرباء ونحن عصابة الأطفال، غالبيتهم من الذكور. بل أذكر أنني كنت الفتاة الوحيدة بين صبيان العائلة كلها في ذلك الوقت. كان صراخ الثلاثة وبكاؤهم في اللحظات الأولى من حضور «المطهر» يصل ربما إلى سابع جار، وكنا نسمع أن الأقوياء مطلوبون لتثبيت الصبي وضمان عدم تحركه أثناء وجوده تحت مشرط «المطهر»، والدهم بالتأكيد ليس من ضمن هؤلاء، لأنه لن يستطيع تحمل المشهد، وبعد فترة رأيناهم ثلاثتهم تباعاً وهم يرتدون «دشاديشهم» البيضاء الطويلة، يمسكونها من وسطها بأطراف أصابعهم ما بين الركبتين يبعدونها عن أجسادهم إلى الأمام، تحسباً

لأي ضربة على مكان الطهور، قد «تلجم»[٣] الجرح فينزف.

خالتي (وهي زوجة عمي في الوقت نفسه)، كانت في الليل وقبل النوم تقوم بوضع الحصير القش على هذه الفتحة، منعاً لنزول الرطوبة أو ما هو غير متوقع، أو الحشرات والذباب، وحتى لا يتسلل الضياء والحر باكراً إلى البيت ويتسببا بإفاقة النائمين، وبعد أن يقوم الجميع تصعد إلى السطح فتزيلها أو يقوم أحدهم بذلك بدلاً عنها ويبدأ نهار جديد.

حين تخطو أول خطوة داخل حوش بيت جدي، القديم نسبياً، لا بد أن يلفت نظرك إلى اليسار مباشرة وعلى بعد متر فقط، باب ذو أسياخ حديدية، طولية، صدئة. لطالما كنت أخشى النظر مباشرة إليه. وقليلاً ما وقفت عنده برفقة أحد أبناء عمي الذين يروون لي حكايات غريبة عما ورائه. هذا الباب وما وراءه مرسوم في ذاكرتي مثل قصص أفلام الرعب.

غالباً ما كنا نسمّيه باب «السرداب»[٤]، عادة يكون مقفلاً، ولا أحد منا، نحن الأطفال يجرؤ على فتحه والنزول إلى السرداب.

لكن الفضول دفعني في إحدى المرات إلى الدخول حين فتح عمي الباب لحاجة ما، دخل هناك وغاب. رغم الخوف الذي ولدته حكايات أبناء عمي عن السرداب، اقتربت من الباب، كان ذلك في

---

(٣) تلجم: تنكأ الجرح.

(٤) السرداب: هو قبو. تحفر السراديب تحت البيوت القديمة جداً، لا سيما في النجف وكربلاء وغيرها من مدن العراق. كانت تستخدم للنوم صيفاً لبرودتها، وهناك أقبية بمقدار طابقين أو ثلاثة تستخدم لحفظ الطعام على أنواعه.

منتصف أحد نهارات الصيف وكان المدخل معتماً تماماً، لكن لم يمنعني من تلمس بضع درجات إلى الأسفل، تأتي مباشرة بعد العتبة العالية نسبياً، تليها درجات نازلة تلتف يميناً من دون أن تبدو نهاية لها، فيغيب الداخل في المجهول.

لا بد أن أقوّي قلبي، قلت لنفسي. نزلت الدرجة الأولى وبعدها الثانية والثالثة ثم بدأت أتمسك بالجدار وأنزل، لا أدري كم من الدرجات نزلت ورحت بعدها أنادي عمي مراراً من دون أن أسمع جوابه.

لم أكن بلغت السابعة، يومها، رحت أحدث نفسي: يا ربي ماذا حدث له. هل أكله الجن؟ أم الفئران؟

وصلت أخيراً إلى الأرضية، مشيت قليلاً، هناك ورغم حرارة الصيف اللاهبة في الخارج، بدأت أحس برطوبة لذيذة قلما نشعر بها هكذا فوق في الدار. مددت نظري نحو بصيص ضوء كان يأتي من بعيد، لم أستطع تحديد المسافة، قلت لا بد أنه عمي يضيء مصباحاً هناك، سرت بتمهل ووجل وأنا ما زلت أتلمس الجدار، وبعد مسافة قصيرة، فوجئت بأن مصدر الضوء فتحة صغيرة مربعة تشبه الشباك، ربما بضلع عشرة سنتيمترات، تمتد إلى الأعلى ونحو الخارج، من هنا عرفت أنه نور النهار يتسلل عبر الطاقة الصغيرة وليس نور مصباح كما خيل إليّ.

لكن أين عمي؟؟ بصيص النور ذاك كان له الفضل في رؤيتي سلماً آخر ودرجات أخرى نازلة أيضاً إلى الأسفل، تملكني العجب والخوف أكثر من قبل. شككت بأنه ربما هناك سلالم إلى ما لا

نهاية فماذا أفعل؟ هل أعود أدراجي أم أنتظر ظهور عمي؟

الفضول كان أقوى. مددت قدمي إلى الأسفل نحو أول درجة ببطء، وبعدها بدأت أنزل فيما الظلام يزداد رويداً، وعدت أتحسس الجدار وأنزل، ثم توقفت إذ سمعت بعض الحركة والطقطقة، في تلك اللحظة داهمتني صور الوحوش والجرذان وكأنها تهم بالهجوم علي، انحبس صوتي ولا أدري ما الذي انحشر هناك في حنجرتي منعني من الصراخ أو مناداة عمي، وكان الجو بدأ يصبح بارداً جداً إلى درجة شعرت بأنني بدأت أرتجف.

يا إلهي ساعدني كي أعرف أين أنا وما الذي يدور حولي؟ قررت العودة والصعود من حيث أتيت، لكن أين السلم، وكأنه اختفى ولم يعد له وجود. في غمرة هذا الكابوس أضيء المكان بفانوس رأيته أمامي على بعد خطوات.

كان عمي واقفاً هناك يحاول إضاءة الفانوس، رأيته وكان فوجئ بي وأجفل، قال: ما الذي أتى بك. هل تريدين شيئاً. هل خالتك تريد شيئاً من هنا؟ هل يريدون لحماً أم بطيخاً أم ماذا؟

هدأت من روعي وبدأت أفكر، وا عجبي؟ ماذا حدث لعمي؟ يسألني إن كانوا يريدون طعاماً؟ هل سيرسله لهم من هذا المكان؟

قلت: عمو ماذا تفعل هنا؟ قال: أجلب بعض الطعام إلى فوق لكي نطبخ للعائلة، أنت تعرفين اليوم ما شاء الله كل عمومتك وخالاتك وأولادهم وجداك وجدتاك موجودون، علي أن أجلب المزيد من الفراش من الطابق الأعلى للسرداب، ومن هنا أجلب المزيد من الطعام.

لكن يا عمو هل معقول أنتم تحتفظون بالطعام هنا.

قال: يا عمو هنا أفضل مكان لحفظ الطعام. ألا تشعرين بالبرد.
قلت: أجل إنني أتجمد.

وهكذا ساعدت عمي على حمل بعض الأغراض من السرداب. ومنذ ذلك اليوم عرفت بأن السرداب السفلي في الطابق الثاني تحت الأرض يسمى سرداب «السنّ»، وهو بمثابة «ثلاجة»، ولشدة برودته يخصص لحفظ الطعام حيث لم يكن الكثير من العراقيين في النجف، يملكون ثلاجات أو أن بعضهم لم يرحب باستخدامها بعد، أما الطابق الأول من السرداب، فهو للنوم صيفاً سواء في النهار للقيلولة أو في الليل. وحين يشتد الحر في تموز وآب ينزل البعض إلى سرداب «السنّ» لينام هناك، وهو بالطبع واسع على قدر سعة البيت. فنجد فيه فرشاً وأغطية وكل اللوازم المطلوبة.

رغم معرفتي لمزايا السرداب وأغراضه، وبسبب معيشتي في بغداد، بقيت أتفادى دخوله، في كل زيارة لبيت عمي في النجف، ورغم تلك الأهمية الكبيرة التي كانت للسرداب في حياة الناس، إلّا أنهم استغنوا عنه تدريجياً لصالح الثلاجة التي حلت محل سرداب «السنّ»، و«المبردة» أو المكيف الهوائي «الأير كولر» بدل السرداب الفوقاني في الطابق الأول منه.

واليوم، ربما لا نجد أثراً لما يسمى «سرداباً» إلّا في الذكريات فما تزال صورة بابه ماثلة أمامي تصاحب كل ذكرى رجفات الخوف الماضية.

فلسطين أم العراق في الصورة؟

١٥ أيار ٢٠٠٣

أتساءل هل هناك من يراوده شعور مثل الذي يراودني؟ إذ كل شيء أصبح بلا طعم. وكأني فقدت حاسة التذوق، فلا الطعام فيه لذة ولا الشراب. كل لون بلا لون. كل ألوان الدنيا أصبحت باهتة، أحياناً تميل إلى السواد وفي الغالب مضرجة بالأحمر. كل كلمة بلا معنى. الكلام، كل الكلام لا لذة فيه ولا دهشة ولا يحرك أحاسيس ومشاعر.

الصورة اليوم هي كل الألوان وإن غلب عليها الرمادي والأسود، هي كل المعاني استحضرت الآن كل ما في الكون من نكهات المرارة والعلقم. وباتت تمثل البشاعة والحقد والتسلط. لا شيء يجذبنا أو يذهلنا هذه الأيام سوى الصورة. لا شيء يبكينا حتى فراق عزيز، ولا شيء يؤرقنا ويقض مضاجعنا، ويجعل أحلامنا

كوابيس سوى تلك الصور التي لا أدري بماذا أصفها، فإني بتّ لا أؤمن بالوصف، بعد أن أصبح خائناً، وأقل من الحقيقة بمسافات.

كل سنة أذهب لزيارة الأهل، منذ انتهاء حرب الخليج الثانية، ومنذ بدء الحصار. في إحدى المرات، وفي طريقي إلى السوق للتبضّع، إذ بطابور طويل على باب أحد المستشفيات. نساء ورجال يصطفون في زحام غير عادي. سألت شقيقي الجالس بجانبي والذي كان يقود السيارة: هل يوزّعون الدواء على باب هذا المستشفى؟ وكنت أرى أحياناً مثل تلك الطوابير وبشكل عادي في أماكن أخرى غير المستشفيات.

للوهلة الأولى لم أستطع تفسير نظرته تلك التي رمقني بها حين التفت إليّ، قائلاً: هؤلاء يقدمون طلبات لبيع الكلى؟

الحقيقة أن الصدمة أسكتتني، ولحظتها لم أفهم معنى العبارة. شقيقي سألني: ما بك؟ قلت: لم أفهم. قال: من يبيع إحدى كليتيه يحصل على بضعة ملايين من الدنانير تمكنه من تأمين معيشة عائلته لأشهر أو لأكثر من سنة.

إذن هكذا هو الأمر، بعد أن استنفد الحصار كل وسائل العيش الممكنة والمتاحة لدى العراقي حتى لم يعد لديه ما يبيعه من أغراض منزله، ولم يتبق له سوى بيع أعضاء من جسمه ليعيل عائلته. استعدت في خاطري تلك النظرة التي رمقني بها شقيقي، وعرفت أن ذلك اللمعان أو البريق فيهما كان مزيجاً من مرارة، وحسرة وألم وكل ما في الدنيا من يأس وإحباط.

على الرغم من رؤيتي المتكررة عبر كل زيارة لأهلي لشتى مظاهر الفقر والبؤس تملأ الشوارع، وكانت تزداد وتظهر للعيان من نحول الأطفال والصفرة التي تعلو وجوههم، من مشاهدات كثيرة ومواقف تقشعر لها الأبدان، إلّا أن مشهد الطابور ذاك بالذات، وتدافع الناس، كان الأكثر إيلاماً ومازلت حتى اللحظة وأنا أتذكر المشهد وأسطّره للمرة الأولى عبر الورق يرتعش جسدي وتتسارع دقات قلبي، وتدور الدنيا بي وكأني في حلم مزعج.

هذا ما اعتقدته، اعتقدت أن ذاك المشهد هو الأكثر إيلاماً، لكن هذه المرة الثانية التي يصدق فيها المثل «الحكي مش مثل الشوف!»، حتى رأينا المجازر في فلسطين، سطرتها لنا صور حقيقية لا مشاهد من أفلام العنف الأميركية التي نراها فتخيفنا أحياناً، وحين تكون الصور حقيقية تصبح أكثر من مخيفة أو مرعبة. ومنذ أيام تلاحقني الكوابيس إثر ذلك المشهد الذي تختمه القناة الفضائية بعبارة «Made in Israel» والذي يُظهر مجموعة من قوات عسكرية إسرائيلية تمسك بتلابيب شاب مدني وتستبيح جسده تكسيراً ثم تقطيعاً وهو واقف. هكذا يموت الفلسطيني واقفاً، يقطعون جسده حيّاً، لم نسمع حتى صراخه. وهكذا يموت العراقي أيضاً.

ألم أقل لكم بأن الصورة باتت تحمل كل ما في الكون من نكهات المرارة والعلقم. اللامعقول والدناءة.

الرواتب في زمن العصملّي(*)

١٧ أيار ٢٠٠٣

وماذا عن الرواتب في زمن العصملّي. سمعنا أو قرأنا قصصاً واقعية كثيرة تروى عن (الحكم العثماني) في تلك الأيام. كان يتم استدعاء الموظفين للعودة إلى وظائفهم من دون معرفة ما إذا كانوا سيحصلون على رواتبهم في نهاية الشهر، ولا من يفكر كيف عاش هؤلاء الملايين من دون أن يقبضوا رواتب الأشهر السود الماضية، وبخاصة مع تضخم الأسعار والغلاء الفاحش.

لنعد بالتاريخ إلى ما قبل مائة عام، حين لم يكن للحكومة التركية الحميدية ـ نسبة إلى عبد الحميد باشا ـ ميزانية منظمة للدولة. فالرواتب لم تكن تدفع في نهاية كل شهر كما هي العادة. بل تدفع عند صدور إرادة ملكية فحسب.

(*) من كتاب «بغداد من ١٩٠٠ حتى ١٩٣٤» لكن ألا يمتد هذا حتى تاريخ اليوم.

إحدى الحكايات تروي أن الموظفين لم يتقاضوا رواتبهم منذ شهر كانون الثاني عام ١٨٩٩ وحتى شهر آب من عام ١٩٠٠، فنتج عن هذه الحالة سوء إدارة قوية في المملكة العثمانية... هذا جاووش (جندرمة) وهذا (بوليس) وذاك (كاتب أوراق)، كلهم فاتحين عيونهم ينتظرون الفرج أي صدور الإرادة الملكية. فاضطرت غالبية الموظفين إلى طرق باب آخر مثل الرشوة من المراجعين (الزبائن) وغيرها. ففُقدت العدالة وانتشرت الفوضى فلم تنته إلّا بسقوط السلطان عبد الحميد.

وكان إذذاك أحد كتبة دائرة المالية في قضاء القُرنة (جنوب العراق) يرضخ لهذا الناموس، يجدّ من الصبح إلى المغرب وقرش بارة ماكو (يعني من دون أن يحصل على قرش). لكنه كان يعيش عند والده مأمور البريد والبرق، لذلك كان يتمكن من الاصطبار إلى حين تأدية الرواتب، في حين كان زملاؤه صغار الموظفين الذين كانوا يُعينون من وقت لآخر، بعد أن يُستخدموا مدة من الزمن ينسحبون من العمل لعدم دفع الرواتب. وهكذا مرت الأيام والشهور وحتى الأعوام وصاحبنا الكاتب لم يقبض شيئاً.

جمع هذا الكاتب أصحابه وحرضهم على المراجعة فحرروا العرائض وقدموها إلى والي البصرة ودفتردارها ومتصرّف العمارة وحتى وزير المالية ثم أردفوها بعدة مضابط وشكاوى وكانت النتيجة الحفظ في سلة المهملات.. ومن الصدف أن والد الكاتب ذهب إلى البصرة بمهمة رسمية فكلف ولده بالقيام بأعمال دائرة البرق لأنه كان يحسن استعمال آلة البرق، فقرر الكاتب ـ كونه كان متألماً من تأخير الرواتب ـ أن العرائض لا تفيد مع الجالسين على ضفاف البوسفور بين الغانيات الجميلات. فقام إلى بنت الحان واحتسى شيئاً

كثيراً منها إلى أن وصلت درجة السكر في دماغه إلى ١٠٠ سانتغراد فكتب برقية بإمضائه إلى وزير المال في الآستانة (بالتركية) بما ترجمتها:

الآستانة ـ وزير المالية

لتُفقد أنت مثل راتبنا الموقوف... ولتطرد من الجنة طرد الشيطان.

كاتب مالية مدينة القرنة

عبد المجيد

وبينما كان عبد المجيد أفندي ينتظر صدور الأمر بالقبض عليه وزجه بالسجن على هذه الوقاحة والجسارة التي بدت منه، إذا ببرقية من وزير المالية ترد على متصرفية لواء العمارة تقضي بدفع جميع رواتب الموظفين المتراكمة، إذ كان وزير المال منصفاً فخضع لهذا الطلب المحق.

عندما كنا نشد الرحال إلى النجف

الجمعة ٢٥ أيار ٢٠٠٣

نادوا، هيا لقد جاؤوا، أسرعوا، تعالوا نشاهدهم. وصلت مواكب اللّطامة[١] وضاربي الزناجيل[٢] والمطبّرين[٣] إلى زقاق بيت جدي، في النجف الأشرف. كنت الفتاة الوحيدة بين صبْية العائلة الكثيرين، مدللة، وشقية.

فتحت الباب الخشبي الثقيل بسرعة وقوة أسابق بذلك أخوتي وأبناء عمي. في اللحظة التي أطلّيت بها على الموكب شعرت بنقاط

---

(١) اللّطامة: ضاربو الصدور.

(٢) الزناجيل: جمع زنجيل بالعامية العراقية، هي السلسلة الحديدية أو الجنزير باللبنانية. يضرب بها الظهر في عاشوراء.

(٣) المطبّرون: ضاربو الرؤوس بالطبر (الساطور) أو السيوف، و (اللطم وضرب الزنجيل والتطبير) من ضمن شعائر الشيعة في مواكب عاشوراء للراغبين أو الناذرين لها.

ساخنة تتناثر على وجهي، وأحد «المطبّرين» في مواجهتي تماماً. أشبار معدودة تفصل بيني وبينه، إذ كان زقاق بيت جدي من الضيق بحيث لا يكاد يتسع لمرور سيارة فيه.

ما زلت أذكر، وأنا لم أبلغ يومها الثامنة أو التاسعة، ذلك النهار حين ذهبنا أنا وعائلتي لمشاركة بيت جدي وأعمامي في النجف إحياء ذكرى عاشوراء، وكان تقليداً نتبعه كل عام قبل أن تتغير الأحوال من جوانبها العديدة.

أذكر أن ذلك الرجل الذي ظهر أمامي فجأة كان بلا ملامح، فاللون الأحمر غطى وجهه نزولاً إلى صدره حيث الأبيض الذي لبسه أضحى أحمر. هناك أثر لما يشبه الوجه. لا عينان، ولا أنف ولا فم. وكأن المشهد توقف للحظات، ومرّ هذا المطبّر بطيئاً صارخاً حاملاً سيفاً استعاره أو استأجره أو ربما ورثه من أبيه وقد يكون اشتراه ليحيي فيه هذه الذكرى مع أقرانه ، ملوحاً به إلى أعلى رأسه ثم ينزله ملامساً قمته أحياناً، وضارباً به رأسه أحياناً أخرى.

في غمرة اللحظة لم أعِ تماماً ما حدث، لكن صورته لم تفارقني بعدها. لحظات وتنبّهت، أحسست شيئاً ما يبترد على وجهي ويصبح لزجاً، ييبس فيدغدغني. تحسسته بأطراف أصابعي، نظرت فوجدتها تلونت بالأحمر، نظرت إلى فستاني، رأيت بقعاً حمراء. صرخت، دم...دم. دخلت راكضة إلى البيت أنادي أمي باكية، لكنها من دون اهتمام كبير طلبت مني أن أغسل وجهي وأبدل فستاني وأعود إلى التفرج على المواكب.

الحادثة بقيت في لا وعيي عامل خوف وأرق وقلق حتى اليوم،

لكنها عادت بعد سنوات بقوة مثل شريط سينمائي، حين كنت في الرابعة عشرة: واستقبلتْ أمي بالبرود نفسه حدث بلوغي.

إذن فعلتُ ما طلبت أمي مني، لكني منذ ذلك اليوم لم أعد أنظر إلى المواكب في عاشوراء. بدأت أتحاشاها، أتهرّب منها بكل طريقة على الرغم من استمرار ذهابنا كل عام إلى النجف الأشرف لمشاركة الجميع إحياء الشعائر. بل إن الليالي بعد هذه الحادثة أصبحت صعبة ثقيلة تملؤها الكوابيس والرعب.

بقيت على هذه الحال حتى انتقلت إلى لبنان أوائل الثمانينيات، ومعها كانت بداية التعود على المشهد من جديد. فكانت مشاركة زوجي وأهله في مشاهدة الحدث ضرورية، ففي النبطية ينتظرون المناسبة ويحيونها كحدث هام وجزء من اعتقاد، وديانة وعادة ووو وغيرها، وفي الحقيقة كنت ألمس نظرة فخر مشوبة ببعض الحسد تجاهي، أنا القادمة من منبع أو منبت عاشوراء، فكان من غير المعقول والمنطقي إظهار خشيتي وخوفي من النظر إلى المواكب. أما بدء اعتيادي على المشهد من جديد فساهم فيه رغبة أولادي واعتيادهم منذ النعومة على الذهاب مع والدهم ورؤية الشعائر في كل موسم مع أفراد العائلة الكبيرة، حيث ينتشر الجميع محتلين أماكنهم على بلكونات الشقق التي تطل على الشوارع الرئيسية، وهناك تمر المواكب الملونة بالأحمر نفسه.

البداية كانت صعبة عليّ وإن لم يتخيلها، أو يحس بها أقرب الناس لي، زوجي وأولادي، وأبقى بجانبهم أدّعي النظر والتفرج كما يفعلون. ورويداً وبعد سنوات هان الأمر، وكأن تكرار رؤية المشهد كان بحد ذاته علاجاً للعقدة أو الأزمة، خصوصاً أن تجمعات العائلة

في هذه المناسبة كانت فرصة للقاء والتسلية والترفيه.

بالأمس عدت إلى تلك الفترة من طفولتي في الستينيات، التي حفلت بالكثير من الفرح لولا بضعة أحداث وشّحت أيام الفرحة ببعض الآلام والنكسات.

لحظات الفرح نقاط تتوهج وتضيء في عتمة الذكريات، فما زلت أتلهف، وتعنّ على بالي تلك الأيام والسنوات، حين كان والدي رحمه الله يأبى أن يذهب إلى مكان من دون أن يصطحبنا جميعاً معه. فيشدّ الرحال إلى النجف الأشرف، مسقط رأسه ووالدتي، حيث نشآ هناك، لعبا وتعلما وتزوجا ثم كان انتقالهما إلى بغداد أواخر الخمسينيات.

بضعة أيام، في العشر الأوائل من عاشوراء نقضيها في النجف الأشرف أولاً حيث مرقد الإمام علي وحيث غالبية أعمامي هناك وبيت جدي، لوالدي. كنت أرافق والدتي إلى مجالس العزاء وأحاول تقليد ما تفعل النسوة وما يردّدن. إضافة إلى قضاء أوقات مسلية في اللعب مع أولاد أعمامي، ومن ثم ختام الزيارات والطقوس كان يتم في أربعينية الحسين في كربلاء حيث مرقدا الإمامين الحسين والعباس، وحيث بيت جدي لوالدتي، وكان مديراً لبلدية كربلاء حينذاك. نعود بعدها إلى بغداد وقد نال منا التعب نحن الصغار من الشقاوة واللعب، وحيث المشاهد تبقى معششة، ماثلة في الوجدان، ربما لا أشتاقها، بالذات، لكن لا يمحوها حدث أو سنون.

وأنا أشاهد التلفزيون، عاد شريط الذكريات مع الحشود الكربلائية

بلونها الأسود الذي قلما تلون بالأبيض مع كثير من الأحمر. إلى تلك الحادثة التي طالما حاولت جاهدة تغييبها من تفكيري، وأرفض مشاهدتها أو حتى الحديث عنها. لكنني لا أنسى مع ذلك، مشاهد الرحلة الجميلة من بغداد صوب النجف، ومرورنا بقضاء «المحمودية» ثم مدينة «الحلة»، إذ يلوح من البعيد على الجانب الأيمن من الطريق «أسد بابل» والآثار المحيطة به، ذلك المشهد الخلاب تتخلله، النخلات القديمة، الباسقات، المتناثرات هنا وهناك، تختفي تباعاً أثناء مرورنا بالسيارة. وهكذا كنت أركز نظري على ذلك «الأسد الجاثم فوق الرجل النائم تحته» حتى تتبدد صورته، ويختفي وراءنا، وكان لا بد لكل مار على ذلك الطريق أن يلمحه ويثبت نظره تجاهه، بخاصة حين لا يكون قاصداً الآثار، في رحلة سياحية.

لم نقصد النجف أو كربلاء مشياً على الأقدام في يوم من الأيام، كما فعل الآلاف بالأمس، وما يفعله عادة كثيرون في حالات النذور. بل بواسطة سيارتنا (السكودا) الزرقاء التي كان يملكها والدي، وهي أول سيارة في حيّنا «شارع فلسطين» أوائل الستينيات. حتى أنها شهدت ولادة إحدى الجارات فيها قبل وصولها المستشفى. هكذا كان والدي يحشرنا في «السكودا»، والدتي وأخوتي الصبيان الثلاثة قبل أن يأتي عقيل آخر العنقود بعدها بسنوات.

أكثر من ساعتين، في طريق تحف به من جانبيه بساتين النخيل المتزاحمة، وتالاتها[٤] النابتة في جنباتها، تظلل أشجار الحمضيات، بل وتزاحمها على اتساع المساحات الخصبة الخضراء. حشود نخليّة

(٤) تالات: جمع تالة، وهي الفسيلة أو النخلة الصغيرة تنبت من جذور النخلة الأم.

تتماوج جذوعها وسعفها وأذرعها وما يحفها من تالات وأدغال وجداول مياه لا يشبهها في زحمتها وصخبها إلّا تلك الحشود الإنسانية الكربلائية التي تأتي من بقاع العراق والعالم الإسلامي، تتغلغل فيها، تستظل بظلها من الهجير وأشعة الشمس قبل وصولها إلى المراقد المقدسة، تبكي آل البيت المفجوعين، تسألهم الشفاعة من الله، وفي الغالب كلٌّ يبكي فاجعته وألمه ومصابه.

ما تزال روائح القدّاح[٥] المنبعثة من هذه البساتين تملأ أنفي، تكاد تطغى على روائح الأرض اليابسة والرطبة، وطَلع[٦] النخيل ونبات الطرطيع[٧] والريحان[٨] وغيرها.

وأخيراً تلوح في الأفق المنارة والقبة الذهبية. من بعيد تلتمع تحت أشعة الشمس تبدو وكأنها ترحب بالقادمين إلى مرقد الإمام علي. نصل مشارف النجف، نلج شوارع ضيقة، ثم أزقّة متربة، لا تلبث أن تزداد ضيقاً كلما تغلغلنا في أعماق المدينة. حوائط البيوت من طابوق الآجر، أو الطين، جنباً إلى جنب لا يفصل بينها فاصل، إلّا فيما ندر، مباشرة توحي للغريب بالقِدَم. البيوت القديمة بقيت هكذا كما هي في وسط المدينة، فيما الحديثة تحف النجف في أطرافها البعيدة النائية، حيث الدليل الصارخ على توسعها واختلال البناء وعشوائيته خلال سنوات طويلة مضت.

---

(٥) القدّاح: بالدارجة العراقية، هو زهر البرتقال والليمون.

(٦) طلْع: البودرة التي يلقّح بها عناقيد البلح لكي تثمر، ومن دونها لا ينمو أو يثمر التمر.

(٧) الطرطيع: نوع من الشوك الكبير له رائحة، ينبت على جنبات الطرق وفي الصحارى.

(٨) الريحان: نبات يشبه النعناع، أطول منه وأوراقه أكبر وذو رائحة زكية. يؤكل مثل النعناع ومفضل لدى العراقين.

اليوم أصبحت البساتين عُرضة لامتداد الوحش السكاني ليقلّ اللون الأخضر الحشيشي وتغدو الأراضي المحيطة الواسعة موحشة غير منسّقة لا في البناء ولا في الزرع. كوخ هنا، وبيت حديث هناك. نخلة هنا وأخرى بعيدة هناك، تنحني تحت وطأة الوحدة والإهمال والعطش والقطع والحرق والتفجير رغم شهرة النخلة بصمودها بوجه النوائب والحروب والقحط وقسوة الإنسان.

أول من أمس وجدتني أتمعّن بوجوه هؤلاء المطبّرين بدمائهم السائلة على وجوههم وأجسادهم، ضمن الحشود الزاحفة إلى كربلاء. كان المشهد مؤلماً، قاسياً، لكنه لم يوازِ ما وصلت إليه مشاهد الحرب على العراق حيث الدماء أغرقت الأرض والأجساد المقطعة لم تجد الوقت للأنين والأشلاء المتناثرة وبقايا الجثث المحروقة.

نجمة داود
من يردّ هذا الغزو الصهيوني عن العراق

الأربعاء ٢٥ حزيران ٢٠٠٣

الكثير من القصص والأخبار أصبحت أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، تأتينا من أصحابنا أو إعلاميين آتين من بغداد، وكأن أبا جعفر المنصور نذرها مذ أسسها، لتكون بلد المليون حكاية وحكاية، ولتبقى على مرّ العصور منبعاً لا ينضب لأساطير وحكايات خرافية، أين منها ألف ليلة وليلة.

وعلى الرغم من أن العراق مفتوح اليوم على كل الاحتمالات والتناقضات، التي كانت حتى الأمس القريب، أقرب إلى خرافات منها إلى حقائق، إلّا أننا ما زلنا في كل مرة نرفض تصديق ما نسمعه أو نراه.

تتالى الأخبار والقصص تباعاً من بلد اللامعقول، لكن القصة الأكثر تشويقاً وطزاجة هي «شائعة» الغزو الصهيوني لبغداد بكل أشكاله، وقد ثبت أخيراً أنها حقيقة، لا شائعة، كما عنونت بعض الصحف والأخبار.

هي الحقيقة التي رفضت تصديقها حين رأيتها بالأمس على شاشة المؤسسة اللبنانية للإرسال، إذ كان الجنرال الأميركي ـ كما هو مكتوب على الشاشة ـ يتحدث عن الإرهابيين الذين يشنون الهجمات على الجنود الأميركيين. لم أنظر إليه مليّاً إذ انشغلت بأسلوبه في تبرير الهجوم المضاد على «أتباع صدام»، في اللحظة التي نبّهني ابني الجالس بجانبي أن هذا الجنرال صهيوني. قلت: كيف عرفت؟ قال: انظري إلى خوذته، من جهة اليمين. لم أصدق عيني حين لمحت نجمة داود ترصّع جبينه، وهنا فقط تنهبت إلى جمله التي كان يرددها وكأن ببغاء يردد كلاماً تعلمه من محيطه، يفخر بنجمته أمام العلن، يظهرها بوضوح ويصرّح بثقة بل وتحدّ بالغ لقناة عربية.

إذن أصبح إعلان الانتماء الصهيوني، وفي بلد عربي، في العراق بالذات، بهذا الوضوح مسألة عادية ومشروعة، فيما تفتح إدارة الاحتلال أبواب السجون والمحاكم، تعتقل العشرات يومياً، تكبلهم، حتى الأطفال منهم، بل إن قواته تفتح أبواب جهنّم لأدنى شك بحركة أو التفاتة حتى من طفل، القمع والمنع أصبحا من شيم هذا العدو الذي لم يتخيل العراقي يوماً أنه فعلاً سيكون عدوه، بل كان يأمل بأن قدومه هو نهاية لمسيرة طويلة من المآسي، فأتت الرياح الأميركية بما لم تشته السفن العراقية. بات «بعثياً» وبالتالي مطلوباً من يعلن ولاءه لبلده من العراقيين. ومن يطالب بحقه في العمل،

ومن يعارض نهج الاحتلال، ومن يحض عليه، ومن لا يتعاون معه ووو إلخ.

شقيقي يقول لي عبر تلفون «الثريا» هذه البدعة التكنولوجية الجديدة، وذات الفائدة الوحيدة في هذه الحرب ـ رغم أنها فائدة باهظة الثمن ـ يقول: إذا أردنا تشبيه وضعنا في العراق اليوم بقانون الغاب، فنحن نظلم هذا القانون كثيراً. فما يحدث هو أدهى، وأبعد من أن يطلق عليه قانون، بل هو اللاقانون بمعناه الحرفي. يقول إنهم «يفحّشون» من دون حدود تحت ذريعة، أو شمّاعة «أتباع صدام». يقولون إنهم يلاحقون فلول النظام، واللعبة أصبحت مكشوفة ونعرفها لكن من الذي ينصفنا من هذه اللعبة القذرة؟

إنْ قتلوا عشرات الأطفال في عرس بإحدى القرى، فلا بأس، هذه غلطة إذ إنهم حين سمعوا طلقات الابتهاج، حسبوا أن أتباع النظام يطلقون النار عليهم!

يقول إنكم لا تسمعون أو ترون ما نرى، فكاميراتكم غير متواجدة والإعلام لا يغطي أو ممنوع من أن يُظهر إلّا القنابل التي تقصف، أو الأحداث بعد أن تحدث. لكن ها هي الكاميرا تظهر لنا بما لا يحتمل الشك، حضور الصهيونية القوي بل والخطير في العراق.

كما فعلت في فلسطين عام ١٩٤٨، فإن الرأسمالية العنصرية، واللوبي الصهيوني، يبدآن غزوهما الحقيقي للمجتمع العراقي المدمَّر، والمنهك عبر شراء كل ما يقع تحت أيديهم من أراض وقصور وبيوت ومصانع وشركات وغيرها.

إحدى الصديقات قدمت من بغداد قبل أيام، أخبرتني أن البيت الذي يقارب سعره خمسين مليون دينار على سبيل المثال، يُدفع لصاحبه مئتان وخمسون مليوناً. وتسأل هذه الصديقة: ماذا يفعل العراقي في هذه الحالة برأيك؟ خاصة إذا كان صاحب البيت بحاجة إلى المال بعد سنوات من البطالة المفروضة عليه، ثم أشهر من الحرب، وبعدها الفلتان الذي لا يأمن فيه على نفسه وحياته وحياة عائلته، ألا يفكر ببيع البيت، حيث يعتبرها صفقة رابحة له، إذ سوف يشتري بيتاً بنصف الثمن ويخبئ النصف الآخر يؤمن به معيشة عائلته في هذه الظروف الحالكة أو أنه يهاجر مع عائلته.

وتضيف، إن الناس يحذّرون بعضهم البعض من المبالغ الضخمة التي تعرض عليهم لقاء بيع بيوتهم، وأكثر من ذلك هناك البيوت القديمة التي كان يملكها يهود، تم تهجيرهم ومصادرة أملاكهم من قبل الدولة عام ١٩٥١ إذ يتخوف قاطنوها الذين اشتروا هذه البيوت من الدولة آنذاك من عودة أصحابها اليهود ومطالبتهم بإخلائها، وهم في هذه الحال لن يكون لهم حول ولا قوة ولا دولة سوى دولة محتلة دخلها «سوس» الصهيونية وبدأ ينخرها، والبقية معروفة.

كيف بلغت الجرأة بالمسؤول الصهيوني عن هجرة اليهود إلى إسرائيل، أن يزور العراق للوقوف على أحوال أربعة وثلاثين من اليهود الباقين هناك، منذ حملة التهجير القسرية تلك، لبناء دولتهم. جيف كايي اليهودي أهدى هؤلاء كتب المزامير ـ حسب قوله ـ وبعض الرموز الدينية وقال إن المزيد من البعثات سوف تزورهم، وهذا ربما لإقناعهم بالذهاب إلى دولتهم العتيدة.

لكن هل تكفي خطب الجمعة للتحذير من هذه الهجمة؟ هل تكفي

عشرات المقالات المضادة في الصحف العراقية؟ هل يكفي نشاط الناس فيما بينهم، فيما العديد من العملاء في المقابل يعملون ويساهمون في هذا المدّ السرطاني في المجتمع العراقي.

أين المجتمع الدولي؟ ولمَ هذا الصمت القاتل من المجتمع العربي، حيال كل ما يجري في العراق. وكأن ما يحدث لا يعنينا ولا يهدد هويتنا ووجودنا. كثيرون مات إحساسهم بعروبتهم، انتماؤهم إلى هذه الأرض، وهذه الحضارة. وبات إنكار التاريخ والكفر بهذه الهوية سمة لهم. بل هناك من يرى ويسمع ويغض الطرف بل ويمجّد المحتل ويصدّق تخليصه العراقيين من جور النظام السابق، لكن ليذهب وليرى بأم عينيه ويسأل العراقيين أي المرّين أهوَن؟

في هذه المحنة الجديّة، نجد الغالبية تشيح بوجهها عن العراقي الذي يصف أميركا بالمحتلة. حتى بعد اعترافها هي، هم لا يعترفون. بل يحسبون ألف حساب حين يتعاملون معنا أو يتحدثون. الجميع أصبح يدرس خطواته جيداً، وينتقي كلماته خوف أن يرتكب هفوة ما تضر بمصالحه. بل المؤلم أننا إن دافعنا عن بلدنا، وأظهرنا الوجه البشع للاحتلال، يعتبروننا مع صدام ونظامه.

إنها مأساتنا التي قضت على البقية الباقية من أمل كان ينير شيئاً من الظلمة في أعماقنا، وها هو البصيص بدأ يخبو رويداً ولعل اليوم الذي ينطفئ فيه نهائياً، هو أقرب من رفيف جفوننا وأسرع.

وقد لا يكون ذاك اليوم بعيداً، يوم بدء نقل نفط العراق مباشرة من كركوك إلى حيفا.

عندما عاد أخي من الجبهة

السبت ٣١ كانون الثاني ٢٠٠٤

اختلطت المشاعر والابتسامات بالدموع ونحن نتابع بشيء من عدم التصديق، نزول الأسرى اللبنانيين المحررين من سجون إسرائيل، لحظات مرت طويلة وعيوننا مسمرة على أعلى سلم الطائرة في مطار بيروت. وقفوا هناك، جالت نظراتهم في الأرجاء بحثاً عن ذويهم، كانت لحظات أحسستها دهراً، فكيف بالعائدين بعد طول غياب ومعاناة. فرغم ضرورة المراسم التي تم تحضيرها لاستقبالهم وهيبتها التي تليق بهم إلّا أنها حالت دون اندفاعهم نحو عائلاتهم وأعزائهم الذين مرت عليهم من دون شك تلك اللحظات بما يعادل سنوات الانتظار.

لحظات الدموع تلك والعناقات والاحتضان أعادتني إلى أكثر من عشرين سنة مضت، حين عاد أخي الكبير سمير من الجبهة في

حرب العراق مع إيران، رغم المفارقة أو الفرق الكبير بين عودة أخي وعودة المقاومين الأبطال من الأسر. ورغم الفرق بين الصورة تلك، صورة أخي، وهذه الحديثة صورة الأسرى. إلّا أن المشاعر التي عاشتها أسر وعائلات العائدين هي نفسها اختبرتها مع عائلتي ولمرات عدة، مع أخوتي الثلاثة كلما ذهب أحدهم إلى الجبهة وعاد منها ثم إليها. وهكذا، عرفت طعم لقاء من هذا النوع.

في العام ١٩٨٠، بدأت الحرب العراقية ـ الإيرانية، كنت في بغداد أحضر أوراقي للسفر إلى بيروت، وحين أعلنت الحرب أغلقت الحدود ومنع السفر لأي كان ولأي سبب، ويومها سيق أخي الكبير سمير إلى الجبهة، ولم نتوقع أن تطول ويساق إليها أخواي نمير ومنير بعد سنوات، والعديد من شباب العائلة والأصدقاء، بعضهم قضى فيها والبعض الآخر فقد ولم يعرف له أثر.

الكل سيقوا إلى حرب لم يختاروها، بل البعض لا يعرف ماهيتها أو الهدف منها، وآخرون لم يقتنعوا بها لكن نظام التجنيد الإجباري لم يرحم أحداً. وكان استدعاء الشباب العراقيين بحسب الحاجة وحسب الأعمار، حتى أنها طالت الكهول منهم.

لكل شاب في العراق قصة مع الحروب العراقية المتتالية، إلّا أن شقيقي الأكبر لديه قصص أكثر تنوعاً وأثراً، نظراً لأنه استدعي كجندي في بداية الحرب ولم يسرح منها إلّا بعد ثماني سنوات متواصلة. قصته الأولى مع الحروب ما تزال حاضرة لا يمحوها حدث أو مرور زمن في ذهنه وأذهاننا جميعاً.

في ذلك الوقت استدعي إلى الحرب كل مواليد العام ١٩٥٣ فكان

سمير من بينهم. التحق فغاب ثلاثة أشهر، لم تفلح الاتصالات والواسطات لمعرفة أي خبر عنه، إن كان ما يزال على قيد الحياة أم لا.

والدتي عشقت شباك الصالون المطل على البوابة الحديد. صارت تغفو وتصحو هناك وهي جالسة أمامها. هجرت والدي وهجرتنا، هجرت غرفة نومها وسريرها، ومطبخها، وزياراتها وحفلاتها التي كانت تدعو إليها عشرات الأصدقاء في كل مناسبة. كرسيها الملاصق للشباك أصبح ملاذها، لا تتركه إلّا نادراً، تأكل هناك وتشرب الشاي وتدخن السجائر وتتحدث وعيناها شاخصتان نحو البوابة علّها تأتي بسمير أو بخبر عنه.

سمير الأكبر، الابن المدلل، له الحفلات والاستثناءات دون غيره من أخوته الأربعة أو حتى أنا البنت الوحيدة. لم تكن تمر سنة من دون أن نحتفل بعيد ميلاده حتى بعد بلوغه العشرين، بما يمكن اعتباره تاريخاً لا يمسّ ولا احتمال لإلغائه تحت أي ظرف، فيما لم يكن الأمر سارياً على أحدنا.

بعد أشهر صرنا نسأل أهالي أصدقائه الذين التحقوا معه بالجبهة، معلومات من هنا وهناك، تارة هم في موقع يسمى «المحمرة» لكنهم، كما أخبرونا في تحرك دائم، لا استقرار في موقع واحد، ثم إنهم كانوا يتحركون إلى المواقع المتقدمة بشكل دائم، إنهم منتصرون، إذ يتقدمون؟؟

وشتان بين الانتصار والاندحار!

سمير لم يتح له قضاء أشهر قليلة مع عروسه بعد زواجهما حتى تم استدعاؤه.

ذهب وزوجته في حال ذهول. ثم تحول الذهول إلى قلق وترقب وخوف، بعدها صارت أخبار الحرب الطاحنة تصلنا، وقوافل الشهداء من الشباب تتوالى جثثهم تباعاً، وفي بعض الحالات كانت العائلة الواحدة تدفن أخوين معاً في الوقت نفسه.

اتشحت جدران بغداد والمحافظات الأخرى بالسواد، حيث علقت عليها قطع القماش السوداء، التي تحمل كتابات باللون الأبيض، تدل على سقوط شاب شهيد في منطقة كذا وبتاريخ كذا ومن عائلة كذا.

سمير أبيض البشرة، متوهج الخدين، أشقر الشعر، عيناه الخضراوان كانتا حديث الجميع، لا الفتيات فحسب، بل العائلة والأصدقاء والمعارف، طوله الذي يقارب المترين كان مثار حسد الكثيرين. حين كان صغيراً كانت والدتي تشك له «السبع عيون» الزرقاء، بالدبوس «أبو راسين» بملابسه، أعلى صدره لمنع صيبة العين، لكنه حين كبر بدا أن العين أصابته، كما قالت، فلم تنفع التعاويذ ولم تمنع الآيات من سوقه كالباقين إكراهاً إلى حرب لا ذنب له فيها ولا يعرف أهدافها، فالسيارات كانت عشقه الأول والأخير، لا الحروب ولا السياسة.

في غمرة هذا الحدث، حدث الغياب لأشهر والقلق والانتظار بل ونفاد الصبر، رن جرس البوابة الحديد في إحدى ساعات الظهيرة الغائمة، والمكفهرة، لا من سحب تنذر بالمطر، لكن من أجواء حرب

مخيمة على كل شيء.

عرفت الوالدة بحدسها أن لا أحد غير سمير سوف يأتي في هذه الساعة. لكن حدثت نفسها: وجه ذاك الواقف على بعد أمتار عدة، وراء البوابة لا يشبه وجه سمير. سألت: من أنت؟ قال: آني. نظرت بتمعن وعادت تسأله: من أنت؟؟

نفد صبره، وقال بنبرة عالية عصبية: آني سمير، ما بالكم؟ إفتحوا البوابة.

في تلك اللحظة خرجت أمي قبلنا مسرعة غير مصدقة، لتفتح البوابة، تجر رجليها، خطواتها متباطئة، حذراً من أن تكون هناك بشارة سيئة من أحدهم عن سمير. وجدت أمامها وجهاً أقرب إلى السواد منه إلى السمرة، وشعراً أشعث كثيفاً بدا وسخاً، حاملاً ذقناً طويلة شعثاء أيضاً، وبملابس عسكرية. وقفت أمي لحظات لا تدير قفل الباب. كانت تتمعن في الوجه ولا تعرفه، لكن قلب الأم دليلها. صرخت أمي غير مصدقة.. قالت: سمير؟ هذا أنت.

صرختها لفتت العائلة والجيران، تجمعوا، عمت الزغاريد والصيحات، الكل يخبر الكل، أن سميراً عاد من الجبهة.

الجميع فرح بالعودة يضحك ويهلل إلّا سمير. كان وجهه من دون تعابير. وكأنه تحت تأثير صدمة ما. أدخلناه إلى البيت، ومنذ اللحظة الأولى عرفنا أن الماء لم يلامس جسده منذ فترة طويلة. ربما منذ أول يوم التحق فيه بالجبهة.

بعد حمام دام ربما ساعتين خرج سمير الذي كنا نعرفه، تقريباً؟

عاد وجهه تقريباً كما كان، لكن الشمس لفحته وأصابه الوهن، لم تندَ عنه ابتسامة أو كلمة أو تعليق إلّا بعد فترة من الراحة وزخات الأسئلة.

روى لنا أهوال الحرب والصدمات المتكررة هناك، حيث أبيدت منذ أسبوع كتيبته بشكل كامل: لم نستطع دفن أحد، قال. لم نودعهم. لم يبق منا إلّا عدد قليل. صديق لي كنا قبل لحظات معاً، حين أغارت علينا الطائرات الإيرانية، وقصفت موقعنا، انقلبت به الدبابة من على أحد الجسور بعد أن قصفت وقضى هناك.

قال بعدها: جئت في إجازة ليومين فقط وسأعود إلى الجبهة. عمّ الوجوم مرة أخرى بيننا، فالعودة دونها الإعدام.

بعد يومين عاد سمير إلى الجبهة.

كان وداعه صعباً إذ لم نعلم إن كنا سنراه مرة أخرى. لكن والد زوجته رحمه الله لم يأل واسطة وجهداً من أجل إبعاد سمير عن الجبهة والموت فيها. توسط له من خلال أحد الضباط الكبار، ولم يكن ممكناً أن يترك موقعه إلّا لسبب قاهر، لهذا تم إدخاله إلى أحد مستشفيات مدينة العمارة من دون أن يشكو من شيء، أجريت له عملية استئصال الزائدة الدودية، لكن بمعرفة الطبيب الجراح، ومن أجل إطالة فترة بقائه بعيداً عن خطوط القتال الساخنة، «نسي الطبيب» أو «تناسى» عمداً قطعة شاش أو شيئاً ما داخل بطن سمير سببت له مضاعفات أبقته فعلاً في المستشفى لمدة شهر تحت المراقبة

الصحية، زرناه خلالها في المستشفى حتى قررت إدارته العسكرية نقله إلى الخطوط الخلفية ككاتب أو ما شابه، لعدم أهليته في الخطوط الأمامية، حسب التقرير.

وهكذا ثماني سنوات، كل يوم حدث، وكل يوم انتقال من موقع إلى آخر في الجبهات، حتى جاء دور نمير ومنير، إذ التحقا عسكرياً بعد أن أنهيا الدراسة الجامعية، ولكل منهما قصص وحكايات.

عراق الحرية

٣ نيسان ٢٠٠٤

إيه يا عراق، أيتها النار التي تغتذي بأجساد أبنائها، وما برحت تقول: هل من مزيد؟

أيتها النار التي اشتعل أوارها، ولم تخمد، بل تزداد وتكبر بأكل الأخضر واليابس من هذا البلد الذي ابتلي بغناه، غنى موارده الطبيعية وغنى أبنائه فكراً وعلماً. هذه العطاءات الإلهية انقلبت عليه، ومنذ خلقه، وبالاً، أطماعاً وحروباً، حكومات دموية، ديكتاتورية، حصارات، نكبات واحتلالات على مدى تاريخه الطويل. من هنا قد لا نستغرب هذه الحقبة الحالكة التي يمر بها عراقنا الحبيب.

لكن قدرنا أن نكون في قلب الأحداث اليوم. شاهدنا احتلال

العراق بالطريقة الوحشية التي أقضت مضاجعنا إذ شهدناها بأم أعيننا على الشاشات، بسلسلة من القصف المجنون، المعتوه، المدمر، اللاإنساني، واللاحضاري، وبقلوب تمتلئ حقداً على شعب وبلد صنعا الحضارة الإنسانية منذ بدء الخليقة، وها هي تبدأ سلسلة أخرى من سلاسل وطرق التدمير، بديلة من تلك المكلفة جداً، تنتهك هذا الشعب وتمزق أبناءه، سلسلة السيارات المفخخة، والصواريخ الموجهة وغيرها، بعد أن شرعت أبوابه للحاقدين عليه وبات ساحة مفتوحة لكل أنواع الأحقاد والتطرف، وساحة للانتقام، ولتجربة كل ما هو جديد في عالم الإجرام ليقولوا بأنهم هم أصحاب الحضارة، والعراق بلد الإرهاب، وبات السؤال مطروحاً، ومشروعاً منّا جميعاً:

هل هذا هو العراق الذي كان يطمح إليه العراقيون؟ عراقيو الداخل وعراقيو الخارج على السواء؟

لم أنتمِ يوماً إلى حزب، سوى حزب الفن - في حال صح التعبير - والذيَ بات اليوم من أسوأ الأحزاب، لما آلت إليه أحواله من شرذمة وفوضى عارمة قد توازي ما يحدث في الأحزاب السياسية على الساحة العراقية. لا أدّعي بأنني فاهمة في الإيديولوجيات ومصطلحاتها. بل إنني جاهلة تماماً في السياسة والساسة معاً وأحمد الله على هذه النعمة، نعمة جهلي بهذه اللعبة الوسخة والخطرة في آن. لكن قلبي ينفطر كلما رأيت مذبحة جديدة ترتكب وبشكل يومي بحق نساء وأطفال بلدي وكأن النُذور لم توفَ بعد، وأوانها لم يحن، بل يمتد إلى الأبد، وما زال على العراقيين أن يدفعوا المزيد من الأثمان على ذنوب لا نعرف ما هي، وهل عوقب شعب كما يعاقب الشعب العراقي اليوم، ألا من نهاية لهذه الآلام المستمرة، ألا

ينتهي العقاب بعد انتهاء السبب؟

عراقيو الداخل كانوا يتمنون ويدعون إلى الله أن يتغير النظام ليعودوا إلى الحياة بعد موات سنوات. لكنهم كان مغلوباً على أمرهم. كانوا مشلولين. عاشوا حلقات وسنوات من الحصار. حصارٌ داخل حصار، أصعب من حصار الخارج فرضه عليهم الغرب اثني عشر عاماً وبضغوط من «الشرطية» أميركا نفسها التي جلبت هذا النظام. ورغم هذه الحصارات كنا نسمع بمحاولات كثيرة لقلب نظام الحكم أو لاغتيال الرئيس السابق وكانت كلها تؤول إلى الفشل نتيجة النظام الاستخباراتي الهائل الذي جند العديد من العراقيين بشتى وسائل الإغراء المادي والمعنوي.

أما عراقيو المهجر؟ فحدّث ولا حرج. كنا نقرأ أخبار مؤتمراتهم المضحكة المؤلمة في آن، تصلنا على الدوام بما هو مهين ومؤسف، وأخبار المهاترات والصفقات و«اختلاف وجهات النظر» في مؤتمرات طاحنة صرفت عليها أموال وجهود، لطالما كانت نتائجها وقراراتها في كل مرة تنبئ بهذا المصير الذي آل إليه العراق.

هل هذا هو عراق الحرية الذي حلمنا به جميعاً. مواطنون حلموا بمستقبل نظيف وهانئ لأولادهم، وآخرون من أحزاب وانتماءات شتى، ومختلف المشارب والطوائف ومن أصحاب الإيديولوجيات والرؤى لعراق ما بعد صدام؟ هل هذا هو العراق الذي انتظرنا طويلاً معجزة تنتشله من الآلام والاضطهاد وتحرره بعد حروب دمرته وتركت شبابه ضعيفاً، معوقاً يعاني البطالة والتخلف عن الركب العالمي؟

انتظرنا وانتظر الجميع المعجزة فجاءتنا من أميركا...

جاءتنا بعراق مستباح من كل ما هو ضد الإنسانية أولاً، وضد عراق معافى ثانياً.

يريدون عراقاً مريضاً، بشتى الأمراض. مليئاً فيروسات وطفيليات لا تعد ولا تحصى.

الصورة نفسها كل يوم، أصبحت كابوساً، نراها سواء نقلتها الفضائيات أم لم ينقلها المراسلون وكاميراتهم. حفظنا المشاهد، والصور البشعة نفسها تتكرر مع اختلاف الأماكن والأيدي المرتكبة، يتغير الشارع وتتغير أسماء الضحايا، تزداد أو تنقص لا فرق مع الإرهاب، والاتهامات المتبادلة، نفسها لكن، من كثرة ما حفرت الصور في القلب لم يعد من متسع، للحفر أو من قدرة على تحمل المزيد.

لم تعد لدينا قدرة على الاستيعاب وفهم ما يحدث ولماذا يحدث؟ ولم يعد من إيمان بأي شيء أو مبدأ، أو أحد. وبات السؤال: لماذا، وكيف ومن؟ كل ذلك أشبه بالهذيان أو السخافة بحد ذاتها. فالكل يعرف الجواب.

كلنا نعرف لماذا وكيف ومن؟ لكننا كلنا نحرّف المسائل ونحاول إيجاد التبريرات عسى يوماً ما، ولعلنا نكون مخطئين، فيعود إلينا عراقنا كما نشتهي ونريد لا كما يشتهون ويريدون، وإلى أن يتحقق هذا ليس لنا سوى الحسرات والعبرات، ومحاولة الصبر والسلوان والصلوات أن لا يكون الآتي أعظم.

عمي غازي

٥ حزيران ٢٠٠٤

جاءني صوته عبر سماعة التلفون، بعيداً، خفيضاً، متقطعاً. مراراً كرّرت: آلو.. آلو... كان الصوت بعد جهد يعود متقطعاً، متهجّداً، لكنه تمالك أخيراً وقال:

ـ شلونج عمي سحر؟

* الحمد لله. من المتكلم؟

ـ شلون ماما وبابا وإخوتج؟

أجفلتُ من السؤال. فوالدي توفي منذ العام ١٩٩٨. أجبت:

* الحمد لله، الجميع بخير.

ـ (مع نبرته المتهدجة، عينها) : هل تتصلين بهم؟

في تلك اللحظة خفق قلبي بشدّة إذ شككت بهوية المتصل، لكنني لحظتها أبيت، أو سخرت من نفسي على هذا الشك، وعدت إلى سؤاله:

* من حضرتك؟

ـ آنَهْ عمّج غازي...

* عمو غازي. أهلاً شلونك؟ أين أنت؟

ـ في هولندا.

* هل تعمل هناك.

ـ لا. بل أبحث عن عمل. أنا أقيم مؤقتاً في غرفة بسيطة يملكها أحد معارفي.

* لكن ألست في بولونيا؟

ـ لا. لقد غادرتها بعد أن غدرت بي زوجتي. أخذت مني كل ما أملك. حتى ولدي حولته إلى إبن عاقّ.

لعن الله الساعة التي رحلت فيها إلى هناك. ولعن الله الغربة والمبادئ والأحزاب. ها أنا بعد أربعين عاماً في بولندا، وأربع شهادات دكتوراه، واسمي في التصميم المدني هناك معروف وأنا هنا أستعطي وظيفة. وأقيم مؤقتاً في غرفة صغيرة لا أزور أحداً ولا أحد يزورني أو يمكن أن يبدد وحدتي ومرضي وكآبتي وإحباطي.

ليتني لم أغادر العراق. ليتني متّ هناك قبل أن تطأ قدماي أرض الأغراب. تراب بلادي وعفن عقولنا وتحجرها أرحم من حضارة ورقي تلك البلاد.

آه يا سحورة لو تعرفين كم أنا مشتاق لرؤيتكم. صحتي ليست على ما يرام وأشعر بأنها نهايتي. وأتحسر على نفسي منذ الآن إن متّ في الغربة، وأنني لا بد أن أعود. ترى هل أستطيع العودة؟ هل يمكن ذلك؟ أرجو أن تسألي إن كان اسمي مدرجاً ضمن الممنوعين من دخول العراق. أرجوك يا بنتي.

* يا عمو سبق وأن أخبرني عمي سحبان بأنك غير ممنوع. لكن أموالك المنقولة وغير المنقولة مصادرة.

عمي غازي شقيق والدي يحدثني بالتلفون من هولندا. كان يبكي كالأطفال، يشهق وصوته يتقطع، تكاد دموعه تحرق أذني، بكيت لبكائه المرّ، وهو يسأل عن الأهل، عن أعمامي وعائلاتهم حتى أطراف العائلة، ويبدي ندمه الكبير على إيمانه بمبادئ أيام الشباب، جعلته ملاحقاً من قبل السلطة إبان الستينيات، مما اضطر والدي لتأمين منحة دراسية له في بولندا، وبعد أكثر من خمسة عشر عاماً نال أربع شهادات دكتوراه قيّمة، في الهندسة المدنية، وصمم أحياء بكاملها في وارسو.

هو الخامس في تسلسله بين الأشقاء الستة، والدي البكر، ربّاه إلى جانب أعمامي الآخرين، لذا فهو يعتبره والده، لا شقيقه. وقصة عمي تشبه قصص كثيرين، عانوا الأمرّين من جراء اعتناقهم مبادئ تختلف عن مبادئ السلطة.

لا أعرف عمي غازي تماماً، إلّا أن صورته ما تزال حاضرة في ذاكرتي، ربما غذى حضورها، صورة له بالأبيض والأسود، هي الوحيدة له، كنا نحتفظ بها ضمن عشرات الصور العائلية المتناثرة من دون ألبوم، يظهر فيها وهو يستقل القطار، حين كان الأخير في

أول دورة لعجلاته، وأول صرخة له تعلن الرحيل، ويظهر والدي في الصورة نفسها وهو ممسك بيد عمي غازي في لحظة وداعه يطل من داخل شباك القطار، وكانت هذه، اللحظات ـ كما حسبنا ـ الأخيرة له في العراق، حيث غادر على مضض ولإنقاذ حياته وحياة الأسرة.

كان شاباً جميل المحيّا، والعائلة تطلق عليه اسم كمال الشناوي لشدّة شبهه بالفنان المصري الشهير الذي كان يومها فتى الشاشة الأول ولعقود طويلة.

القصة أن عمي غازي غادر العراق كما قلت هرباً من السلطة آنذاك، وبعد أن حصل على منحة دراسية في بولونيا. وهكذا كنا نسمع عنه بعض الأخبار المقتضبة، من حين لآخر، فعرفنا بأنه تزوج من بولونية ثم صار له منها صبي وأنه حصل على أربع شهادات دكتوراه وحالته المادية جيدة...إلخ.

في ظهيرة أحد أيام الصيف أوائل الثمانينيات، وكعادة غالبية العراقيين البسطاء، والمتوسطي الحال، فيما كنا نفترش أرض «الهول»[١] الباردة مباشرة أمام هواء المبرّدة «الأيركولر»[٢]، نتحلق

---

(١) الهول: غرفة الجلوس. غرفة خاصة غير صالون الاستقبال تستخدم من قبل العائلة والمقربين فحسب.

(٢) أيركولر: كلمة ذات أصل إنكليزي، ربما آتية من كلمة «Air Cooler»، تعني مبردة الهواء وتختلف عن المكيفات الأخرى بأنها تعمل على الماء من خلال تدويره بمضخة خاصه نسميها محلياً «ووتر بمب» وأصلها إنكليزية «Water Pump». يعمل الماء على ترطيب جدران المبردة المكونة من «حلفة» أي نشارة الخشب، وبذلك يدخل الهواء البارد، ليرطب الطقس الصحراوي الجاف، وربما تم اختراع هذه المبردة أيام الاحتلال الإنكليزي للعراق، حيث تستخدم حصرياً، ورغم أن أسعار «الأيركولر» أرخص بكثير وصحية أكثر من غيرها، إلّا أن استخدامها بدأ بالانحسار مع قلة صناعتها وندرة قطع غيارها مقابل استيراد أنواع المكيفات الأجنبية.

حول طعام الغداء هناك، إذ ألغى والداي غرفة الطعام لتتاح لنا غرفة نوم ثالثة، واحدة لوالديّ واثنتان لنا أخوتي الأربعة وأنا، الفتاة الوحيدة.

حينذاك، رنّ جرس الباب، تركت الطعام ومن زجاج الشباك، مددت نظري نحو البوابة الخارجية التي تبعد نحو عشرين متراً عن باب البيت الداخلي وعن شبّاك الهول، كنت أرى رجلاً يمدّ يده، محاولاً فتح البوابة. منشغلين بالأكل سألوني: من بالباب؟ قلت لا أعرف من. أطل والدي، سكت للحظات ثم بدهشة قال: هذا غازي.

صمت مطبق. الجميع توقف عن الأكل. والدتي وكأنها تبتسم مشككة، نحن الصغار لم يدرك أحدنا ما قاله والدي. لحظات وكان عمي غازي يتوسطنا في «الهول» وسط دهشتنا، وعدم تصديقنا الأمر.

كانت صورته هي التي تذكرنا به كلما أخرجناها صدفة، وها هو أخيراً بشحمه ولحمه هنا بيننا في بغداد بعد غياب أكثر من ربع قرن. عاد إلى بغداد، وكانت هذه المرة الأولى التي أراه فيها أو أنني لا أذكره إذ كنت صغيرة، حين غادر. رغم فرحة اللقاء يومها إلّا أن الخيبة أصابتنا جميعاً، إذ كان مختلفاً عن تلك الصورة، صورة النجم، والشاب الوسيم، كمال الشناوي، التي طالما جعلتنا نتوق إلى رؤيته في الحقيقة.

سنوات قليلة، قضاها عمي غازي في بغداد، غادر بعدها إثر خلافات بينه وبين العائلة، كنت أسمعهم يقولون، سبحان الله كأنه

لا راح ولا جاء. أو كما يقول المثل الشعبي «تيتي تيتي مثل مارحتي جيتي». لكن الحقيقة أنه تغير بعد أكثر من عقدين في الغربة، ثم إن القال والقيل ونقل الكلام، حرمتنا من رؤية عمي سوى مرات معدودة، خلال تلك السنوات، وكان أنجز فيها تخطيطات لبعض الأحياء السكنية، والمشاريع في بغداد قبل أن يغادرها، مرة أخرى، ومن دون وداع هذه المرة.

واليوم وبعد ما يقارب العشرين عاماً من الفراق، وبعد شن الحرب على العراق وأزمته التي بدت في أقصى درجاتها، جاءني صوته عبر الهاتف، قلقاً، متألماً. لكن قلقه، وبكاءه هذا، بات كابوساً.

لم يعرف بوفاة والدي الذي كان بمثابة والد له، ومعلم، وقدوة، وأثر كبير في قناعات عمي السياسية ومبادئه في الحياة.

ـ «كيف ماما وبابا وأخوتك؟».

سؤال صعب علي الإجابة عنه. ترى بماذا أجيبه غير الحقيقة؟ ترددت في البدء، وبعد إلحاحه قلت:

* «عمو، والدي أعطاك عمره منذ أربع سنوات».

مرت لحظات كأنها دهر وأنا أسمع نحيبه وبكاءه. بكيت معه. ثم حاولت تخفيف وطأة الخبر عليه.

«عمو، تعيش انت وهذه حال الدنيا.» عاد وتمالك نفسه. أراد الاستفسار عن سبب وفاته.

* القصة طويلة، قلت. مختصرها أنه أصيب قبل سنوات ست، بجلطة ثم بنزيف في الدماغ في بيروت، تحديداً عندما كان في زيارتي. أول زيارة له بعد فك حصار السفر عن العراقيين. خذلَته بيروت بعد أن كانت أمله الوحيد في طباعة مؤلفاته، وخاصة كتابه «تيسير الكامل» والذي أمضى خمس سنوات بنهاراتها ولياليها في تأليفه. وكان يؤمن بأنه سيلاقي ترحاباً لهذا المؤلّف الغني والهام لطالبي العلم والأدب والدراسات اللغوية العربية. لكن بيروت كانت قد تغيرت، إذ خرجت من حرب ضروس طويلة منهكة اقتصادياً، وكان الدولار إبان عام ١٩٩٢، يضرب رقماً قياسياً في التذبذب صعوداً وهبوطاً، فكانت الضربة القاضية لوالدي، إذ فقد الأمل بلبنان صحي بعد فقدانه الأمل بعراق ديموقراطي..

مرت لحظات ثقيلة، طويلة، وبكاء مرّ لم أسمعه من رجل. سألني عن والدتي، قلت:

* الحمد لله. هي تعبة بسبب مرض والدي لمدة ست سنوات، ثم وفاته، لكنها متمالكة.

ـ أخبريني بصراحة هل مات آخرون في العائلة؟ فبعد وفاة هادي ـ يقصد والدي ـ لن تهدّني وفاة أحد. كان هو الوالد، والصديق والصدر الحنون والقدوة والمثل الأعلى... هو الذي زرع فيّ تلك المبادئ. لكني اليوم أكفر بكل ما آمنت به. أكفر بكل تلك المبادئ التي اكتشفت مثل غيري، أنها كانت كذبة كبرى، وخرافات، وأباطيل ضحكوا بها علينا، على الناس، وابتزوهم بها، وكنا نحن الضحايا. (يبكي) ليتني بقيت في بغداد. ليتني لم أغادرها. قولي من غادرنا أيضاً أخبريني؟

* مات عمي مهدي.

وهو الأخ الثالث بعد والدي وعمتي. نوبة بكاء أخرى، شعرت معها برغبة شديدة في إنهاء المكالمة، رأفة به وبي. لكنه عاد ورجاني كي أخبره المزيد.

* ماتت عمتي جهادة. (وهي أخته الوحيدة).
ـ أين دفنوا جميعاً؟.

* أكيد كلهم في مقبرة النجف. وأعتقد هم قريبون من بعضهم البعض. أطلق آهة عميقة، وقال:

ـ كتب عليّ أن أفارقهم في الدنيا باكراً لكني أتمنى أن أراهم في الآخرة. ترى هل أتمكن من زيارتهم بعد موتهم؟. هل هناك المزيد؟

قلت: خالي عدنان. وهنا لا جواب، سوى البكاء أيضاً. عاد إلى البكاء والنشيج العميق.

إذ كان على علاقة وطيدة بخالي عدنان، فالمرحوم أكثر شخص في العائلة احتضنه بعد عودته وطوال بقائه في العراق، حين خاصمته العائلة كلها.

بعدها أخبرته أن جدتي وجدي لأمي، رحلا أيضاً. وخلال الحربين الماضيتين بين العراق وكل من إيران والكويت استشهد الكثير من شباب العائلة المقربين والبعيدين. فماذا تريد أكثر مما عرفت؟ كفاك أسئلة، إرحم نفسك وارحمني من عناء الإجابات السوداء، دعنا

ننسى الماضي لأن الآتِ أعظم. أعرف أن الأحداث الجسيمة التي مرّ ويمر بها العراق هي التي حركت لديه المواجع، والحنين. لكن لماذا أنا؟

والآن مر أكثر من سنتين منذ ذلك الاتصال، لا أعرف أين أصبح عمي غازي. في هولندا؟ هل عاد إلى بولونيا؟ أم في مكان آخر من العالم.

أرفض هذا الاحتلال

٣٠ حزيران ٢٠٠٤

يا إلهي، لم أتخيل يوماً أنني سأرى العراق بلداً محتلاً. ما زلت غير مصدقة أن النخلة الشامخة في بلدي ستصبح أسيرة، مكبلة، مكسورة الخاطر، والأجنحة. بساتين الليمون والبرتقال في الجنوب، تدوسها أحذية الغرباء، تسويها بالأرض. ورمّان كربلاء يحترق في جحيم التحرير وتحت وابل نيران آلة همجية يطلقها التنين، الآتي من بعد آلاف الأميال، من كوكب آخر لا يعرف ما العراق.

جاءوا دنسوا المساجد وأهانوا أبناء الرافدين بكل أشكال الإهانة جسدية، نفسية، جنسية، مادية. ليعيثوا به حرقاً وتدميراً وفوضى عارمة تماماً كما هي أفلامهم التي لم تعد خيالية، بل بات الواقع أكثر خيالية منها.

العراق الذي يعدّ من أوائل البلدان التي استقلت من احتلالات سابقة واستعمار متعدد الخطى والوجوه، عاد محتلاً في بداية الألفية الثالثة، في عصر التقنيات العلمية الهائلة. بعد أن اعتقدنا أن الغزو سوف يقتصر فحسب على الفضاء والكواكب خارج نطاق كوكب الأرض. إلّا أن العلم وأربابه اليوم فيما يبدو، فشلا في اكتشاف الكون، وأسراره والكنوز فيه فكان لا بد من العودة إلى الأرض وغزو البلدان الغنية، من دون اعتبار للإنسان فيها، فلا يهم موت بضعة آلاف عراقيين أو إعاقة آلاف آخرين أو تشويههم وتفقيرهم في سبيل أن يحيا الأميركيون وتزداد رؤوس أموالهم.

ولطالما امتلك العراق كنوزاً قد يرى البعض أن أهله غير مستفيدين منها وهم غير أهل لها، إذن فليستفد الآخرون، خاصة أن ثروات العراق سوف تؤمن لأميركا السعادة والثراء إلى ما شاء الله من سنين.

ثروة العراق النفطية المعلنة، حسب التقارير والدراسات، هي أقل بكثير من تلك المخفية، وعلى الرغم من أن رقم الاحتياطي المعلن للنفط هو أقل بكثير من الاحتياطي الحقيقي (حسب الاقتصاديين المختصين)، إلّا أن غير المعلن هو ثروات العراق الأخرى التي تعدّ أهم وأكثر من النفط. صحيح أننا نحن المواطنين العاديين غير المتخصصين في علم الاقتصاد، لا نملك أدلة أو إثباتات إلّا ما نسمعه أو نقرأه من حين لآخر، إلّا أننا حين نسمع هذه الأخبار والتقارير من هنا وهناك، لا يبقى مجال للشك بأن أميركا لا بد أن يسيل لعابها لما تملكه من أدلة واسعة ودامغة على ثراء بلدنا، وهي التي تعاني من أزمات اقتصادية حقيقية. وهي وجدت كل الأمور مواتية لتخطو خطوتها الجريئة الوقحة، الهمجية، لاحتلال العراق

والسيطرة على موارده قبل أن يفعلها آخرون سلمياً، فكانت حجة صدام وأسلحة الدمار الشامل.

تنفست الصعداء بعد تفتت الاتحاد السوفياتي الذي ساهمت فيه بالذات، إذ خلا لها الجو، وبدأت تهدد كل من تسول له نفسه النهوض والتطور، من الدول النامية، والعربية خاصة. ممنوع عليها رفع رأسها. ممنوع امتلاك ثروة أو سلاح أو اكتفاء صناعي أو زراعي أو صحي أو غيره.

ومع امتلاكها لآلة تدميرية لا تضاهيها آلة في العالم، دججت بها جنودها المرتزقة، منهم من جاء بعقد مغر، كالحصول على جنسية مثلاً إن هم شاركوا في المعارك، فكان ما أرادوا، وكان لأميركا ما أرادت بعد إدخال العراق في سلسلة حروب ثم حصار جائر على الشعب، لا على صدام الذي بقي على ترفه، بل ازداد ترفاً وتباهى به إعلامياً كي يظهر لهم أنه لا يتأثر بالحصار، وكل ذلك لكي يكبو العراق مثل طريدة لتنقضّ أميركا عليه مثل حيوان يفترس ضحية ضعيفة لا حول لها ولا قوة.

السؤال الذي يقض مضجعنا: لماذا لم تع الدول العربية مسألة ثروات العراق وأطماع أميركا؟ لماذا لم تحاور العراق أو تضغط بطريقة ما على صدام كي يحتفظوا بثرواته لهم وللعرب وللتوصل إلى الإفادة من الثروات، كما حدث مع الأردن مثلاً إذ استفادت من النفط بشكل كبير عبر الاتفاقات المعلنة وغير المعلنة.

وحدها سورية بعد الأردن وعت ذلك في العامين الأخيرين، إذ بدأ التبادل التجاري والمواصلات عبر الحدود فكان متنفساً لأبناء

البلدين. وربما هذا ما كان يقلق أميركا. يقلقها أن يتفق العرب مع بعضهم بعضاً فيشكلون قوة كبيرة في اتفاقهم أو اتحادهم، في مواجهتها ومواجهة إسرائيل تحديداً، فتعمل بشتى الوسائل والأساليب على تفرقة العرب، ونحن الشعوب العربية مغلوبون على أمرنا، لا حول ولا قوة، ومن الضعف بحيث لا نملك سبل توحيد مواقفنا معاً ناهيك عن مواقف حكوماتنا، وهنا حدّث ولا حرج.

اليوم تجثم قواتها الغازية على قلوبنا، لا على مدننا وقرانا وبيوتنا وشوارعنا فحسب، بل على ثروات العراق كما خططوا؟ لكن هل يعمّر الاحتلال طويلاً؟؟

كل التمنيات أن يكون الجواب: لا. فالعراقي الذي عانى سنوات طويلة من الحروب والقهر والظلم والحصار من الداخل ومن الخارج، وأنواع العذاب والذل، لن يحتمل عذابات أخرى، وإن قبل جور القريب فهو لن يرضى بجور الغريب، وما هذه التظاهرات إلّا بداية لمقاومة، واليوم كل عراقي لديه كرامة، ووطنية، وعزة نفس سيرفض الاحتلال، وسيقاوم.

بكل ما أوتيت من وسيلة سوف أرفض الاحتلال وأقاومه بالقلم، بالكلمة، بالأغنية، بالريشة وبالإعلام، بالقصيدة، بالوسائل الحضارية أقاومه وأرفضه. أدعو كل عراقي وعراقية، أن يشاركوا أهلنا في العراق رفضهم وصمودهم، وإن سُلب تاريخنا، ودمر تراثنا، وأحرقت أوراق هويتنا، ومكتباتنا، وعماراتنا ومؤسساتنا. وإن غيرت معالم شوارعنا وسوّيت حدائقنا، وقطعوا أوصال نخيلنا. رغم كل مآسينا، نقول لا.

لا لسلب مواردنا وأرزاقنا ومستقبل أولادنا.

لا، لاحتقارنا وإذلالنا، وممارسة ألوان السادية والمازوشية في إهانتنا وإفقارنا ليس إلّا لدعم اقتصادهم وانتقاماً من حضارتنا وحقداً على تاريخنا، هم المرتزقة المتجمعة في بلاد بلا حضارة وبلا تاريخ، يصنعون حضارتهم من ثرواتنا ويكتبون تاريخهم بدمائنا.

سحر طه

مقامات بغدادية

من يوميات الاحتلال الأميركي للعراق

عن بغداد الحضارة والالفة بناسها وأهلها ولغاتها ومقاتنها. بغداد قبل أن تسقط في الأيدي البربرية. كل هذا بلغة تسرد هنا. تحكي هناك. شفافة. حنونة. قوية. قاسية عندما تصرخ من الألم. عذبة عندما تنساب وتملس على تذكار، أو على وجه، أو على صوت آتٍ من ذلك الماضي الأسطوري أو على حكاية تطلع من الزوايا الحميمة، ومن التذكارات.

وعلى امتداد هذه السنوات المفعمة بالخراب في العراق، حملت سحر طه قلمها (رديف صوتها وفنها) وكتبت عن تلك التراجيديات اليومية، انطلاقاً من الايمان بأن الأوطان لا تموت.

بول شاوول

ISBN 9953-21-236-8

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS
5593